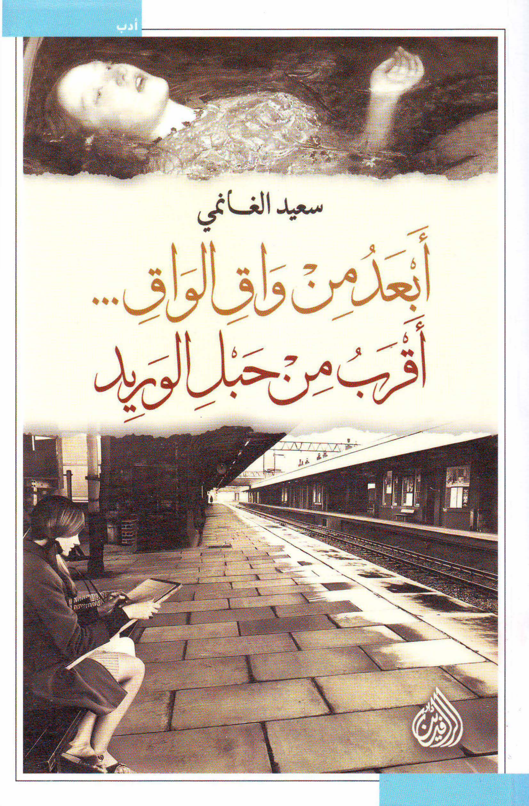

أدب
سعيد الغانمي
أَبْعَدُ مِن وَاقِ الوَاقِ...
أَقْرَبُ مِن حَبْلِ الوَرِيدِ

أَبعَدُ مِن واقِ الواقِ... أَقرَبُ مِن حَبْلِ الوَريد

سعيد الغانمي

عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية:

Further than Wonderland... Closer than Heartbeat

By Said Al- Ghanimi

الطبعة الأولى: أغسطس ـ آب، 2022 (1000 نسخة)



بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com

info@daralrafidain.com

daralrafidain@yahoo.com

Dar ALRafidain دار الرافدين

daralrafidain

dar.alrafidain

dar_alrafidain

daralrafidain دار الرافدين

ISBN: 978 - 9922 - 671 - 41 - 3

أَبْعَدُ مِنْ وَاقِ الوَاقِ...
أَقْرَبُ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ

سعيد الغانمي



www.daralrafidain.com

الفهرس

إهداء

إلى (سٍ) مِنَ الناسِ،

إلى يَومٍ مِنَ الأيّامِ أنكَرْناهُ..

حتّى زالَ..

حتّى غابَ عَن ذاكرةِ الأيّامِ،

لَم يَتْركْ لنا ذِكْرَىً...

فَأَنكَرْنا الذي لا يَقْبَلُ النُّكران.

وما زلْنا منَ اليومِ الذي ماتَ إلى الآن

أَسارَى ذلكَ النِّسيان.

تمهيد

أعذبُ السَّردِ ما كانَ أبعدَ من «واقِ واقَ»، وأقربَ من نبضِ حبلِ الوريدِ. وللحقِّ لا بدَّ لي أن أُوضِّحَ أنَّ البعيدَ هنا قد يكونُ محالاً، ولا يتصوَّرُ عقلٌ حصولَ نظائرِهِ في زمانٍ يُماثلُ أزمانَنا نحنُ، لكنَّه مع ذلكَ شيءٌ يُعاشُ، ونشعرُ فيه يحيطُ بنا، والغرابةُ أن لا نراهُ. لذلكَ كانَ لزاماً لتسجيلِهِ من ضرورةِ إحداثِ بعضِ الثُّقوبِ بسردِ الحكاياتِ، أو جعلِها تتمظهَرُ بالشِّعرِ أو بالخيالِ، لكي يتصوَّرَ قارئُها أنَّها في حدودِ الوقوعِ، وقابلةٌ للوجودِ.

وبالطَّبعِ، لا بدَّ لي أُشيرَ من البدءِ أنِّي أرى أنَّ ما سوفَ أرويهِ سردٌ، وليسَ بصنفٍ سواه. وأؤكِّدُ طابعَهُ الحَكَويَّ، لأنَّ السُّرودَ تفكِّر في قولِ ما هو يمكنُ، لا ما تحقَّقَ بالفعلِ، حسبَ الذي قالَهُ سيِّدُ العارفينَ أَرِسْطو. ولكنَّني حينَ حاولتُ إحداثَ بعضِ الثُّقوبِ بأجسادِ بعضِ الحكاياتِ لاحظتُ أنَّ التَّداخلَ بينَ الضَّروريِّ والممكناتِ قد يتحقَّقُ حينَ نُرائي بأنَّ الخرافةَ جسرٌ نسيرُ عليهِ لنعبرَ صوبَ الحقيقةِ، أو لنكونَ دقيقينَ أكثرَ، أنَّ البعيدَ

المحالَ يصيرُ قريباً كحبلِ الوريدِ، إذا كانَ واقعُنا جاثماً فوقَ أنفاسِنا كالخرافةِ، يخنقُنا دونَ أن نحسَّ بِهِ، ويحاولُ إجهاضَ أفكارِنا دونما سَبَبٍ. مِن هنا لا نكادُ نحسُّ به، لا نتيجةَ إغراقِهِ في الخيالِ، لكنْ نتيجةَ كونِ الخيالِ هنا واقعاً ماثلاً، وإن كانَ في ذاتِهِ مُسْرِفاً في الجموحِ. لذلكَ يهربُ منّا كثيراً، إذا ما سَعَينا لتحليلِهِ كخيالٍ بسيطٍ يراوحُ في سردِهِ، أو سَعَينا لتحليلِ ما فيهِ من واقعٍ مسرفٍ في التَّحقُّقِ. والحالُ أنَّ الصَّحيحَ هو أن نتناولَهُ كخيالٍ تمَرَّدَ حتّى تحقَّقَ، أو كواقعِ أُسطورةٍ غافلَتْ أهلَها لتمثِّلَ واقعةً تتكرَّرُ في كلِّ آنٍ.

وأزعمُ أنَّ النُّصوصَ التي يحتويها الكتابُ هنا قد أردتُ لها أن تكونَ حكائيَّةً، فهي سَرْدُ الخيالِ البعيدِ، ولكنَّها ربَّما غلبَ الوزنُ فيها على السَّردِ في بعضِ أجزائِها. غيرَ أنِّي أُكرِّرُ أنِّيَ لم أقصدِ الوزنَ، لا بل أرى أنَّ ما جاءَ فيها على الوزنِ ظلَّ يصرُّ على أنَّه النَّثرُ في شكلِهِ الحَيَويِّ، وليسَ بشعرٍ، كما يتراءَى لدى أوَّلِ الظَّنِّ. لكنَّه للأمانةِ سردُ الحياةِ التي تتنكَّرُ عنّا، وأثناءَ ذلكَ يحصلُ فيها التَّداخلُ بينَ الحكايةِ والشِّعرِ، والوزنِ والنَّثرِ، والمستحيلِ وما يتكرَّرُ في كلِّ يومٍ أمامَ نواظِرِنا، ولذلكَ لسنا نراهُ.

السَّرد والسَّفر في الزَّمان

في أواخر التِّسعينات، أعلن أحد كبار الفيزياويِّين أنَّ السَّفر في الزَّمان ممكنٌ، على أنَّنا لا نمتلك حتّى الآن الوسيلة التي تُتيح لنا القيام به. وقد كان هذا الإعلان شرارةً أطلقَتْ في ذهني عدداً من الأفكار المحيّرة. فتمكُّن الإنسان من السَّفر في الزَّمان يعني بالنَّتيجة أنَّه سيتحكَّم بالزَّمان، وبالتالي يعني قدرة الإنسان على افتضاض لغز الزَّمان، وتحوُّلِهِ إلى كائنٍ خالدٍ. لكنَّ الخلود، بالنسبة إليَّ في الأقلِّ كشخصٍ تربَّى على الثَّقافة التَّقليديَّة، هو الفارق الوحيد بين الإنسان والآلهة. فضلاً عن ذلك فمن شأن هذا، إذا تحقَّق، أن يقلب الاعتبارات النَّظريَّة والعقليَّة جميعاً، ويضعَنا بإزاء معضلة نظريَّة حقيقيَّة. إذا افترضتُ مثلاً أنَّني قرَّرتُ السَّفر في الزَّمان قبل مائتي عام، لألتقيَ بجدِّيَ الأكبر، وأقنعَهُ بأن لا يتزوَّجَ من جدَّتي. ولنفترضْ أنَّني نجحتُ في مسعايَ. حينئذٍ لن يكون أبي قد وُلِدَ، وبالتالي ينبغي أن أكون أنا نفسي غيرَ مولودٍ. ولكنِّي ولدتُ فعلاً وسافرتُ في الزَّمان. وفي هذه الحالة، لا بدَّ أن

تكون إحدى الواقعتين زائفةً، فإمّا أنّني لم أُولَدْ، أو أنّني لم أُسافرْ في الزَّمان.

لم أستطعْ حلَّ هذه المعضلة النَّظريَّة حتّى التقيتُ ذات يوم عالماً فيزياويّاً. عرضتُها عليه، فتفهَّمَها الرَّجل قائلاً: ما صرَّح به العالم صحيحٌ، والمعضلات الفكريَّة التي اقترحتَها صحيحةٌ أيضاً، لكنَّها قائمة على التَّصوُّر التَّقليديِّ للزَّمان. فنحن في العادة نتصوّر الزَّمان خطّاً متواصلاً يتَّجه من الماضي إلى المستقبل. وإذا كنّا نقبل بالتَّغيُّر، فذلك لكي نقرنَهُ بالحاضر وحسبُ. غير أنَّ الزَّمان في حقيقته هو التَّغيُّر نفسه. وهذا التَّغيُّر لا يشمل الحاضر وحده، بل يشمل الحاضر والماضي والمستقبل. فالماضي يتغيَّر أيضاً. وهكذا إذا قرَّرنا العودة إلى نقطةٍ في الماضي، فإنَّ هذه النُّقطة تتغيَّر أيضاً، وبالتالي فلن نعودَ لتلك النُّقطة بعينها، بل سنعود في الحقيقة إلى نقطةٍ أخرى من الماضي. وبالنَّتيجة فالسَّفر في الزَّمان لن يعرضنا لهذه الاحتمالات النَّظريَّة الإشكاليَّة.

يا لروعة السَّرد..لم يفكِّر جلجامش منذ آلاف السِّنين وهو يطوي صفحاتِ الزَّمان باتِّجاه جدِّهِ أوتانبشتم (مَن أُوتي الحياة الخالدة) بهذه المعضلات. لم يفكِّرْ بها أودسيوس وهو يهبط إلى العالم السُّفليِّ لكي يعرفَ ما يدَّخرُهُ المستقبل لمدينتِهِ من نبوءات،

ويكتشف هناك أنَّ أُمَّهُ ماتتْ، وقد جاءتْ في موكب الأرواح الذي تجمَّعَ حوله. وقد رضيَ كلاهما بالعودة إلى مصيره البشريِّ مثل سائر الناس، مدركاً أنَّ الخلود الحقيقيَّ هو الخلود السَّرديُّ، خلود الأحاديث والذِّكر، كما يقول حاتم الطائيُّ: «ويبقى من المرء الأحاديث والذِّكر». وفي هذه الأحاديث، يُتاح كلُّ شيءٍ. يُتاح للمرء أن يسافر بأخيلتِهِ إلى الماضي أو المستقبل، بشرط أن تكون البطاقة مزدوجةً. ففي الرِّحلة السَّردية في الزَّمان لا توجد رحلة ذهاب وحسبُ، بل هي دائماً رحلة ذهابٍ وعودةٍ خائبةٍ، ولكنَّها خيبة الانتصار، لا الهزيمة. في حكاية حاسب كريم الدِّين من «ألف ليلة وليلة»، يقرِّر بلوقيا، وقد هام في حبِّ النَّبيِّ محمَّد الذي لم يولدْ بعد، أن يُسافرَ إلى زمانِهِ في المستقبل، فيقنعه عفّان بسرقة خاتم سُلَيمان الذي تحرسُهُ ملكة الحيّات. وكانت المفاجأة أنَّ عفّان احترق، ونصحتْهُ ملكة الحيّات بأنَّه كان من الأولى له أن يأخذ «العشبة التي كلُّ مَن أكلَها لا يموت»، مع أنَّها هي نفسها لم تأكلْ منها. في هذه الرِّحلة يلتقي بلوقيا بشخصٍ بنى قبرَهُ بيديه وجلسَ يبكي عليه. وكأنَّه بهذا يُسافر إلى الموت ويستبقُهُ. ومثلما تتوفَّرُ الوسيلة السَّرديَّة للسَّفر في المكان في البساط السِّحريِّ، أو العصا السِّحريَّة، كما في الحكاية التي يرويها أبو زيد القرشيُّ في مقدَّمة كتابه «جمهرة أشعار العرب»، كذلك لا بدَّ من وسيلة سرديَّة للسَّفر في الزَّمان، وهي في العادة وسيلة طقسيَّة أو لنقل

تقنيَّة. ولكنَّها دائماً مشروطة بأن تكون تذكرة سفر مزدوجة للذِّهاب والعودة معاً. وفي نهايتها يدركُ المرءُ استحالةَ طرحِ الأسئلة الإشكاليَّة التي ابتدأتْ بها هذه القطعة.

ذاكرةُ آدمَ ونسيانُهُ

﴿ولقد عَهِدْنا إلى آدَمَ مِنْ قبلُ فنَسِيَ ولم نجدْ له عَزْماً﴾ [طه: 115]

لا يتذكَّرُ آدمُ كيف تذكَّرَ حيَّةَ الفردوس الأُولى، التي كانَتِ السَّبب في هبوطِهِ إلى الأرض. لكنَّه حين لمحَ «ملكة الحيّات»، وهي بالطَّبع نفسُها ملكة الحيّات التي تظهر في حكاية حاسب كريم الدِّين في «ألف ليلة وليلة»، اقترب منها وسألَها: أَلَسْتِ الحيَّةَ الأولى التي ظهرت في جغرافيا البقاء الأُسطوريَّة؟ لم تكنْ ملكة الحيّات واثقةً أنَّها رأت آدمَ من قبل، لكنَّها تعرف بالحكمة التي حصلت عليها في حكاية حاسب كريم الدِّين، أنَّ الذاكرة والنِّسيان ليسا من الأدوات المعرفيَّة التي يحتاجُها سكّان الفردوس الأعلى، بل هما جزءٌ من الأدوات المعرفيَّة في عالم الشَّهادة. لم تعرف ملكة الحيّات كيف تردُّ على آدمَ، غير أنَّها تذكَّرتْ فجأةً أنَّها سبق أن رأت ابني آدمَ قابيل وهابيل على بعد بضعِ خطواتٍ من المكان. فقالت: لستُ متأكِّدةً أنَّني

أستطيع الإجابة، ولكنْ لعلَّكَ ستجد إجابةً ما عند وَلَدَيك هناك.

سحبَ آدمُ خطاهُ، واقترب من مشهد الأَخَوَين، بلقطةٍ قريبةٍ يسمعُ كلامَهما، ولا يقاطعُ رؤيتَهما لبعضٍ. سمع قابيل يقول لأخيه: هل سامحتَني يا أخي؟ رفعَ هابيلُ عينيهِ وسألَهُ: على ماذا؟ قال: على قتلي إيّاكَ في العالم السابق. تحسَّسَ هابيلُ آثارَ الشَّجَّةِ على جبينِهِ، وفي خيالٍ شبهِ بورخيسيٍّ سألَهُ: هل كنتَ أنتَ الذي قتلتَني أم أنا الذي قتلتُكَ؟ تبسَّمَ قابيل وقال: لا بدَّ أنَّكَ سامحتَني، لأنَّ النِّسيان يعني المسامحة. قال هابيل: لو كنتُ أنا الذي قتلتُكَ، هل كنتَ ستتذكَّرُ ذلك، فلا تسامحُني؟ أجابَهُ قابيل: لا أعرفُ، لكنَّ إحساسي بالذَّنب هو الذي يجعلُني أتذكَّرُ أنَّني قتلتُكَ.

بصعوبةٍ استعاد آدمُ أحزانَهُ على مقتلِ هابيل وضياع قابيل. لم يكنْ بحاجة إلى هذه الذِّكرى، لكنَّه استعادَها بصعوبةٍ كبيرةٍ. وفي لمح البصر أدرك آدمُ أنَّ الذِّكرى والنِّسيان لا ينتميانِ إلى عالم الفردوس الأعلى، بل إلى عالم الفردوس المفقود، إلى عالم الأخطاء والمساءات في الوجود الأرضيِّ الذي تسمِّيه الأُسطورة بالعالم. وبما يشبه البرق التمَعَ أمامه كلُّ شيءٍ؛ على الأرض يحتاج المرء إلى الذاكرة والنِّسيان، لأنَّ الأرض هي عالم الأخطاء التي

يحرص بعض الناس على تذكُّرها، وآخرون على نسيانها. أمّا في الفردوس الأعلى، فلا يحتاج إليهما المرء. حينئذٍ أدرك أنَّ ملكة الحيّات كانت «ملكة الحيّات» على الأرض، ولم تعدْ كذلك في الفردوس. أدرك أيضاً أنَّ أحزانَهُ على مقتل هابيل وضياع قابيل كانتْ على الأرض، حين كانا ولديه. أمّا الآن، فلم يعُدْ بحاجةٍ إلى معرفة هل كانا ولديه، لم يعد يتذكَّرُ إن كان يتذكَّرُهما أم نسيَهما فعلاً.

خادم الخضر المزوَّر

في البداية لم يكُنْ مع الخضر، بل كانَ خادمَ الإسكندرِ ذي القرنين. لكنَّه بقريحتِهِ الإجراميَّة أدرك أنَّ مستقبلَهُ ليس مع الإسكندرِ، بل مع الخضرِ، فاقتربَ منه وقال: مَولايَ، أنتَ تعلمُ زُهدي في هذا العالم، وتعلمُ مقدارَ استغنائك عنِّي، فأُريد من فضلك أن تُعتقَني، لأتفرَّغَ لخدمة هذا الشَّيخ الصالح، مولانا الخضر.

هكذا انتقلَ من خدمة الإسكندر إلى خدمة الخضر، مؤمِّلاً أن يسبقَهُ في الوصولِ إلى نبعِ الحياة. كان يختلسُ النَّظرَ إلى الخضر بمنتهى الدِّقَّة، لكنَّه يتظاهرُ بأنَّه لم يَرَ شيئاً على الإطلاق. حين مرّا ببحرِ الظُّلُماتِ، ورأى الخضرَ يشدُّ إلى قَدَمِهِ حمامةً ميِّتةً، فإذا مرَّ بنبعِ الحياةِ، انبعثَتْ وتحرَّكتْ تحت قَدَميه، فكَّرَ من جانبه بأن يشدَّ إلى قَدَمِهِ عدداً من الحيّاتِ والعقارب الميِّتة. لكنَّه خشيَ أنَّها ستحيا قبلَهُ وربَّما نهشتْ قدمَهُ وقتلتْهُ قبل أن يصلَ هو إليه. ومن حسن حظِّهِ أنَّ نبع الحياة لم يكنْ في طريق الخضر فوق بحر الظُّلُمات.

عندَ حدودِ المتاهةِ الكبرى، جلسَ الخضرُ بالقرب من بئرِ ماءٍ. ولم يكنْ يبدو على ملامحه أنَّه يتوقَّعُ شيئاً. مدَّ بساطاً، ونشرَ السَّمكاتِ الثَّلاثَ الصَّغيرة فوق البساط، ورمى حَجَراً في وسطِ البئرِ. سقطَتْ ثلاثُ نقاطٍ من مياهِهِ فوق السَّمكات، وفجأةً لبطَتْ وتحرَّكتْ وانبعثتْ فيها الحياةُ من جديد. لم يقلْ شيئاً. ترك الخضرَ يهبطُ إلى نبعِ الحياةِ وحدَهُ، ويرتوي منه وحدَهُ. لكنَّه خلسةً وضعَ علامةً فوق البئر، وكلَّما ابتعدا في مسيرهما عنه صار يضعُ علامةً جديدةً.

حين أرادَ أن يعتذرَ عن إكمال الرِّحلة مع الخضر، أدركَ المولى خيبة مسعاه، وتركَهُ يخطِّطُ وينفردُ كما يشاءُ. استدلَّ بالأحجارِ التي تركَها في طريقِهِ ليستهديَ بها عند العودةِ إلى «نبع الحياة». وأيقنَ أنَّه حصلَ على غايتِهِ القصوى في إكسيرِ الخلودِ. نزلَ في نبع الحياة، واغترَفَ منه، وتأكَّدَ تماماً أنَّه صار في زمرة الخالدين.

بعد أن استيقنَ من خلوده، أراد أن لا يُنافسَهُ أحدٌ في الحصول على نبع الحياة. في البداية فكَّرَ في تسميمِهِ وردمِهِ، ثمَّ فكَّرَ في التَّمويه عليه. حفرَ آباراً مماثلة وردمَها، ثمَّ حفرَ آباراً أُخرى إلى الغرب والشَّرق والشَّمال والجنوب، وردمَها جميعاً بالطَّريقة نفسِها. كان متيقِّناً تماماً أنَّه ظفر بخلودِهِ الأبديِّ، وفكَّرَ باختراعِ

آلةٍ جهنَّميَّةٍ أشبهَ بالفخِّ، تُطبِقُ على مَن يقترب مِن أيِّ بئرٍ من هذه الآبار المردومة المترامية، آلةٍ لا يمكن الخلاصُ منها أبداً، ومن شأنها أن تُطبِقَ على مَن يقعُ فيها، وتبقى تمتصُّهُ حتّى الموتِ. اخترعَ الآلةَ، ولم يخترعْ طريقةً للخلاص منها. وفي غفلةٍ منه، وقعَ في هذه الآلة الجهنَّميَّة، وبقيَ حبيساً فيها، يتمتَّعُ بالعذاب الأبديِّ الذي اختارَهُ لنفسِهِ.

موجز تاريخ كوكب نبتون

يوجد تاريخ كوكب نبتون بأكمله في القاعة التي يُطلَقُ عليها اسم «قاعة النَّمرود الأكبر». ففي هذه القاعة توجد جميع الوثائق، وجميع التَّماثيل التي تتحدَّث عنها هذه الوثائق، لأنَّ كوكب نبتون في الحقيقة لا تكاد تزيد مساحتُهُ عن قاعة النَّمرود الأكبر، ومصانع التَّماثيل المرتبطة بها. وللتَّماثيل في كوكب نبتون حرمةٌ كبرى لا تُضاهيها حرمةٌ، لأنَّها جوهر الدِّيانة والثَّقافة والكرامة النِّبتونيَّة. وتُدعى التَّماثيل في اللُّغة النِّبتونيَّة (صَنَما) أو (صَلَما) أو (زَلَما) أو (زِلْما). ولمّا كان من حلمِ كلِّ نبتونيٍّ أن يتحوَّلَ قبل موتِهِ إلى تمثالٍ، فقد أُطلِقَ اسم النَّبالة النِّبتونيَّة (زِلْمة) على كلِّ شخصٍ يرتقي في مراتب الكرامة حتّى يصلَ إلى درجة التَّمثال أو (زَلَما). وحين يتحوَّل إلى (زِلْمة)، يُنقَلُ التَّمثال أو الصَّلَم أو (الزَّلَما) الخاصُّ به إلى قاعة النَّمرود الأكبر.

قبل أن توجَدَ قاعة النَّمرود الأكبر كانت هناك قاعة للتَّماثيل فقط. وهي قاعة يتردَّد عليها كثيرٌ من الكهنة، وغالباً ما توصَدُ

أبوابها في اللَّيل. ولكن حين ترتفع درجات حرارة الصَّيف في شهر تمُّوز، يتسامح الكهنة بترك أبواب قاعة التَّماثيل مفتوحةً تجنُّباً للاختناق. وفي ذات مرَّة قدحَتْ في ذهنِ شخصٍ اسمه النَّمرود فكرةٌ عبقريَّةٌ. تسلَّلَ في عُمْقِ اللَّيل باتِّجاه القاعة، وحطَّمَ جميع التَّماثيل فيها، واستبدلها بتماثيلَ أُخرى، صادَفَتْ أنَّها جميعاً تُشبِهُ صورتَهُ. ومنذ ذلك الحين أُطلِقَ على القاعة اسم «قاعة النَّمرود الأكبر».

بعد عدَّة أجيال، قدحَتْ في ذهن نمرود آخرَ فكرةٌ عبقريَّةٌ نبتونيَّةٌ أُخرى. وفي شهر تمُّوز أيضاً، قرَّرَ هذا النَّمرود تحطيمَ جميعِ التَّماثيل الموجودة في قاعة النَّمرود الأكبر، وأعلنَ على الملأ أنَّ التَّماثيل أجلُّ وأعظَمُ من أن تُحبَسَ في قاعةٍ مغلقةٍ، بل يجب أن يختارها النَّاس بأنفسِهم، وأن توزَّعَ في شوارع كوكب نبتون وساحاته العامَّة. وبسرعة جنونيَّة صار أهالي نبتون جميعاً نحّاتين، يصنعونَ التَّماثيل، وينصبونها في الشَّوارع والساحات والحدائق العامَّة. ومن المصادفات أنَّ جميع التَّماثيل الجديدة كانت تُشبِهُ صورةَ النَّمرود الثاني.

تغيَّرَ التَّقويم في كوكب نبتون عدَّة مرّات، لكنَّ شهر تمُّوز بقيَ مصرّاً على الثَّبات في موقعِهِ. وفي تمُّوز آخرَ بعد عدَّة قرونٍ،

شَبِعَتِ الناس من عبادة التَّماثيل، فدعا أحدُ المصلحين النِّبتونيِّين الأطهار إلى الخلاص من التَّماثيل واستبدالها بالصُّور، لأنَّكَ لا تستطيع أن تبثَّ الحياة في التَّمثال. يمكنُكَ أن تصنعَ صنماً من الحجر، لكنَّك لا تقوى على جعلِهِ ينبضُ بالحياة. أمّا الصُّورة فشيءٌ آخرُ، لأنَّ الصُّورة ذاتُ بُعْدٍ واحدٍ، ولا تتطلَّبُ من صانعها أن يبثَّ الحياة فيها. وقد أصرَّ هذا النَّمرود الثالث على أنَّه لا يريد سوى الإصلاح. ولكي يُبرهِنَ على مبدأه السامي، فقد أعلنَ عن رغبتِهِ في السَّفر إلى كوكبٍ آخرَ. وفي حفلةٍ صاخبةٍ وعارمةٍ تمَّ تحطيمُ جميعِ التَّماثيل في شوارع نبتون وساحاته العامَّة، واستبدالها بصورِ نمرودٍ ثالثٍ يعيشُ في كوكبٍ آخرَ.

قبل أن يُخلَقَ الكَرْمُ

قبل العصور الجليديَّة الأولى، قبلَ أن يُخلَقَ الكَرْمُ، رافقَ أغنامَهُ، وقرَّرَ الصُّعود إلى أعلى الجبل. تركَ الأغنامَ ترعى تحت ناظريه، وتسلَّقَ صفحة الجبل بخطىً مُطمئنَّةٍ. جلسَ يحدِّقُ في الفراغ، في الأغنامِ التي ترعى، في المساحات الشاسعة التي يمكنُ أن تفاجئَهُ منها الذِّئاب. ولا يعرف كيف انسلَّتْ منه أفكارُهُ، تركتْهُ وذهبتْ باتِّجاهٍ آخرَ. هل حصلَ على ما يُريد؟ كلٌّ ما يُريد؟ ما الذي يريدُهُ؟ يريدُ أن يظلَّ هنا، أن يثبتَ في هذه النُّقطة، دون أن يهاجمَهُ وحشٌ أو عدوٌّ، والأهمُّ من ذلك أن يظلَّ قويّاً كما هو، يستطيعُ أن يجمعَ الأغنامَ، ويردعَ الذِّئاب، إذا هاجمتْها.

أخذتْهُ أفكارُهُ إلى نقطةٍ لم يكنْ واثقاً منها تماماً؛ هل يُريد أن يبقى هنا، أم يبقى كما هو؟ ماذا تعني «هنا»؟ وماذا تعني «كما هو»؟ «هنا» تعني في هذا المكان، عند سفحِ الجبلِ العملاق. تتعلَّقُ «هنا» بالسُّؤال عن المكان. و«كما هو» تعني أن يبقى كما هو، أن لا يُؤثِّرَ فيه تعاقبُ اللَّيل والنَّهار، والطُّفولة والشَّيخوخة،

لأنَّ «كما هو» سؤال حول الزَّمان، حول الثَّبات عند نقطةٍ واحدةٍ من الزَّمان.

التقطَ حجراً ورماه في مكانٍ ما، حرصَ أن يكونَ بعيداً عن الأغنام وعنه وعن الجبل. فجأةً سألَ نفسَهُ؛ هل هذا الحجر جزءٌ من الجبل؟ ما الذي يجعلُ الجبلَ جَبَلاً؟ هل الجبلُ هو مجموعةُ أحجارٍ؟ هل ينتمي الجبلُ للمكان أم للزَّمان؟ أهو جبلٌ لأنَّه مجموعةٌ من الأحجار تجمَّعت في مكانٍ واحدٍ؟ أم هو جبلٌ لأنَّ الأحجارَ فيه قاومَتْ مرورَ السِّنين وتعاقبَ اللَّيالي والأيّام؟ أحسَّ أنَّ بوسعِهِ أن يحضنَ الجبلَ وأن يعانقَهُ. هو أكبرُ من الجبل قليلاً، يستطيعُ أن يرفعَ رأسَهُ ويطبعَ قُبلةً على جبينِ الجبلِ. ترنَّحَ قليلاً، شعرَ بدبيبِ السُّكر، يتسلَّقُ من قدميهِ إلى رأسِهِ. بدأ الجبلُ بدورِهِ يترنَّحُ تحتَهُ. مَن منهما يُمسِكُ بالآخرِ؟ لم يعدْ يطيقُ الفرح الذي كلكلَ عليه. أحاطَتْ به النَّشوة من كلِّ جانبٍ، نشوةُ احتواء الزَّمانِ والمكانِ، ومعانقةِ الجبل. شعرَ بأنَّه يترنَّحُ سكراً. لقد سكرَ بخمرةٍ إلهيَّةٍ سرِّيَّةٍ، قبلَ أن يُخلَقَ الكَرْمُ، وقبلَ أن يُخلَقَ السُّكر نفسُهُ.

اختراع النِّير

يتذكَّر شَمَش نُصَّر أقِّي (أو حقِّي، في لهجةٍ أُخرى) كيفَ تمَّ أسرُهُ واسترقاقُهُ في دولة مدينة «أسبرانو». ولن ينسى مطلقاً مقدار التَّعذيب الوحشيِّ الذي تعرَّض له، بعد أن تمَّ أسرُهُ في معركة وادي الذِّئاب. في البداية جرَّدوه من ملابسِهِ تماماً، واحتملَ ذلك مؤمِّلاً أن تكون هذه آخرَ العقوبات. لكنَّهم سرعان ما أوثقوا يديه بالحبالِ وشدُّوهما إلى الخلف. وجمعوه إلى بقيَّة الأسرى، ثمَّ ربطوا رقابَهم بالحبالِ أيضاً وسحبوهم. هناك خطرَتْ في بالِهِ فكرةُ اختراعٍ جديدٍ للانتقام من أسرى الأعداء، لكنَّه لن يبوحَ به لأعدائِهِ مهما كلَّفَ الثَّمن. سيقَ إلى المدينة مع بقيَّة الأسرى، وبوحشيَّة منقطعة النَّظير، تمَّ تجريدُهُ من كبريائِهِ بعد ملابسِهِ، ثمَّ ختموه بختْمِ العبوديَّة في رسْغِهِ بسكِّينٍ محميَّة، أحدثَتْ له من الألم ما لم يكنْ يتوقَّعُهُ. وقد انقضَتْ خمسُ سنواتٍ بالضَّبط منذ أن فقد سيادتَهُ وإنسانيَّتَهُ وكرامتَهَ، ولم ينسَ ذلك الألمَ قطُّ.

في اليوم السابع من نيسان من عام 3023 قبل الميلاد، قرَّر

شَمَش نُصَّر حقِّي تنفيذَ الخطَّة التي بقيَ يحبكُها في سرِّهِ خمسَ سنواتٍ كاملة. في مساءِ ذلك اليومِ، لم يذهبْ إلى المعبد كعادتِهِ، بل اتَّجه نحو البساتين التي تحيطُ بسور المدينة من الداخل. وبغفلةٍ من الحرّاس، استغلَّ دخول القطعان العائدة من الرَّعي، وتمكَّن من اجتياز السُّور، وعلى الفور اختفى في المزارع الكثيفة التي تحيط بالسُّور. وحين اقتربَ من حامية المدينة الخارجيَّة، تعمَّد دخول أجمةِ الأسود، ليكون لقمةً سائغةً لها، ولا يكون لقمةً سائغةً لسيوفِ الحرّاس النُّحاسيَّة وهراواتهم المقوَّرة التي تنتهي بكتلة القير. وأخيراً نجحَ في الخروج من حدود مدينة أسبرانو والدُّخول في حدود مدينة الزَّعفران.

في مدينة الزَّعفران، حدَّثَ ملك المدينة عن اختراعِهِ الذي سيشكِّل قفزةً في تاريخ الحضارة. فبدلاً من إيداع الأسرى والعبيد في السُّجون، يمكنُ اختراع آلةٍ لحبْسِهم فيها، وتحميلِها عليهم. ولا يكلِّف الأمرُ سوى عددٍ من الأخشابِ التي تدقُّ بالمسامير وهيَ على أكتافِهم. يمكنُ أن يوضعَ النِّير على رقابِ عشرين عبداً أو ثلاثة عبيدٍ في الأقلِّ. ومن شأنِهِ إذلالُهم حتّى الموتِ أو القبول بالعبوديَّة. انشرحَتْ أساريرُ الملك، وأوعزَ بتعليم ورشة نجارة القصر كيفيَّة إعداد النِّير في اليومِ نفسِهِ. وفي اليوم التالي تجمَّع عددٌ كبيرٌ منها عند باب ورشة القصر الملكيِّ. وحين ذهب شَمَش

نُصَّر حقِّي لمقابلة الملك، أخذَهُ الملكُ بالأحضان، وأخبرَهُ بأنَّه سيجعله قائداً عند الهجوم على دولة أسبرانو بعد ثلاثة أيّام.
نظرَ شَمَش نُصَّر حقِّي إلى الختمِ الموسومِ على رسغِهِ وقالَ: مولايَ، لا أستطيعُ العودةَ إلى أسبرانو، إذا عدتُ لها سأكونُ عبداً بالضَّرورة. قالَ الملك: لا عليكَ، سوفَ نُزيل هذا الختمَ، ونضع بدلَهُ ختماً جديداً يقول إنَّكَ قائدٌ. قال شَمَش نُصَّر حقِّي: مولايَ، أفضِّلُ الموتَ على أن أعودَ إلى أسبرانو.

استولى الوجومُ على ملامحِ الملك، واستدار نحو أتباعِهِ وقال: ضعوا هذا العبدَ الآبقَ في اختراعِهِ حتّى يثوبَ إلى رشدِهِ.

(ملاحظة: يقول خبراء اللُّغة النِّبتونيَّة إنَّ كلمة «أسبرانو» تعني الزَّعفران).

كهف الحروب السَّبعة

لم يدخلوا في الكهْفِ مجموعينَ، بل متفرِّقينَ، وربَّما فصلَتْ ثلاثُ مئينَ مِن سنواتِهِمْ ما بينَهُمْ. كانوا جنوداً سبعةً، فرُّوا من الحربِ اللَّعينَةِ. يتركُ الجنديُّ عُدَّتَهُ، فراراً من حروبِ الآخرينَ، ويدخلُ الكهفَ القديمَ. وحينَ يُبصِرُ طيفَ جنديٍّ تمدَّدَ قبلَهُ، يأوي إليهِ، ويستلذُّ حلاوةَ الإغفاءِ في كهفٍ تمدَّدَ فوقَ أشلاءِ الزَّمانِ. يحسُّ بهجةَ أن يفرَّ من الحروبِ إلى براري الحلمِ في زمنٍ تمرَّدَ. يستريحُ، ينامُ في الكهفِ العتيقِ، ينامُ نومَ الحالمينْ.

لم يعرفوا أَبَداً بأَنَّهمُ جنودٌ سبعةٌ. فقد دَخَلوا فُرادى، يجهلونَ بأَنَّهُمْ هَرَبوا جميعاً من حروبِ الآخرينَ، وأَنَّهم لا ينتمونَ إلى زمانٍ واحدٍ، بل ينتمونَ إلى حروبٍ سبعةٍ، كانتْ تدورُ بصفحةِ الوادي القريبِ. ولم يُتَحْ لهمُ اللِّقاءُ، لأنَّهم أبناءُ أزمنةٍ خَلَتْ، ولمّا تلتئمْ أَبَداً، وتفصلُهُمْ قرونٌ في الحقيقةِ عن خيالِ الالتقاءِ الواقعيِّ الجادِّ. لكنَّ الحروبَ هيَ التي أفضتْ بهم للنَّومِ في كهفِ اليقينِ

المستحيلِ، لعلَّهم يصحونَ في زمنٍ يسودُ به السَّلامُ، وقد يظلِّلُهُ اليقينْ.

في فتحةِ الكهفِ العتيقِ، أبى غُرورُ الشَّمسِ أن يمتدَّ فوقَ النائمينَ المتعبينَ من الحروبِ، وظلَّتِ الأطيارُ ترفضُ أن تُلِمَّ بكهفِهِمْ عشراتِ آلافِ السِّنينِ، لعلَّهمْ يصحونَ من زَمَنٍ قسا، ما كانَ بالزَّمَنِ الرَّحيمِ بمثلِهِمْ. لكنَّهم ناموا قروناً قاسياتِ الوقعِ، تتبعُها قرونْ.

في ذاتِ فجرٍ ساطعٍ لم يعرفوا معناهُ، هبَّ النائمونَ جميعُهُمْ في لحظةٍ، وتساءَلوا معَ بعضِهِمْ: مَن أنتمُ؟ وهل اجتمعتمْ للسَّلامِ أم الحروبِ؟ متى أتيتمْ هاهنا في الكهفِ؟ ماذا تفعلونَ؟ تساءَلوا. ولعلَّهمْ في السِّرِّ قد مدُّوا بأيديهِمْ إلى الأغمادِ. لكنْ حينَما فطنوا إلى أزيائِهِمْ، وتبيَّنوا كمْ مِن فروقٍ بينَهمْ في زيِّهمْ وكلامِهِمْ وسلاحِهِمْ، قالوا جميعاً: ربَّما جئتُمْ إلينا في جموعِ الطارئينَ. هنا تصدَّى واحدٌ منهمْ فقالَ لهم: أرى أنَّ الغرابةَ بينَنا في العصرِ، لا في الانتماءِ إلى المكانِ، فَأَخْرِجوا ما في الجيوبِ من النُّقودِ، لعلَّها ستدلُّ حاملَها على زَمَنٍ. فقالَ اثنانِ منهمْ: لم يكنْ بزمانِنا نَقْدٌ، وكانَ الوزنُ «شيقَلَ». بينَما امتدَّتْ أيادي الخمسةِ الباقينَ نحوَ جيوبِهِمْ. ربّاهُ، تفصلُهم قرونٌ قاسياتُ الوقعِ، ماذا يفعلونَ؟

أشارَ آخرُهُمْ: أليسَ من العجائبِ أن تفرِّقَ بينَنا الأزمانُ والأزياءُ واللَّهَجاتُ والأهواءُ، لكنْ أن توحِّدَنا الحروبُ؟ ألم نجئْ للكهفِ من أجلِ الفرارِ من الحروبِ؟ وقبل أن يستأنِفَ استفسارَهُ، وجدَ الجنودُ الآخرونَ مرارةَ المعنى، فهُمْ من أُمَّةٍ تاريخُها أبداً حروبٌ جمَّةٌ في موضعِ الوادي هناكَ، ولا نجاةَ لأهلِها إلّا اللُّجوءُ إلى المغاراتِ القريبةِ في الكَرَى. ولِهَولِ ما شعروا به تراخوا كلُّهم للصَّمتِ، عادوا خائبينَ إلى ظلامِ الكهفِ، من رُعْبِ الهويَّةِ في حروبِ الآخرينْ.

حكايات نهر الجنون

كانَ رُواةُ حكايةِ «نهرِ الجنونِ» أصحّاءَ في البدءِ، حينَ رَوَوا ما رَوَوهُ، ولكنَّهمْ حالما جرَّبوا أن يذوقوا مياهَ الحكايةِ، أفسدَهُمْ طعمُها، وغَدَوا، شأنُهمْ شأنُ مَن ذاقَها قبلَهُمْ، في عِدادِ المجانينِ، لا يعرفونَ متى مرقَ النَّهرُ من أرضِهمْ، ولماذا، وكيفَ تحوَّلَ سكّانُ نهرِ الجنونِ من الوعْيِ بالذاتِ حتّى التَّشكُّكِ بالآخرينَ. على أنَّهمْ، رغْمَ ما انتابَهُمْ من جنونٍ وديعٍ، يصرُّونَ أنَّ التَّشكُّكَ بالآخرينَ بدايةُ ما جرَّبوه من الوعيِ بالذاتِ في طورِهِ المتعالي الجديدْ.

وليسَ بخافٍ بأنَّ حكايةَ «نهرِ الجنونِ» مجرَّدُ أُمثولةٍ عن غيابِ التَّعقُّلِ. لكنَّها حصلتْ في الحقيقةِ، ينقلُها السائحونَ الذينَ ارتأى حظُّهُمْ أن يمرُّوا بها، غير أنَّهمُ رفضوا ماءَها، فشكَّكَ أهلُ المدينةِ في عقلِهمْ، وأرادوا اعتقالَهُمُ، غيرَ أنَّهمُ أفلتوا. والمدينةُ معزولةٌ عن سواها بسورَينِ؛ سورٍ من الحجرِ الصَّلْدِ، جاءَ به أهلُها من بقايا عواصمِ أُسطورةٍ يزعمُ الفُضَلاءُ بأنَّهم استجلبوه فوقَ ظهورِ

جيادِ الخرافَةِ والجنِّ. ثمَّ هنالكَ أيضاً سياجٌ من الوعيِ والخوفِ في داخلِ الساكنينَ على أرضِها؛ فالمدينةُ داخلُها لم يَكُنْ فاقدَ الوعيِ حسبُ، بل هُوَ أيضاً فقيدْ.

ولا ريبَ أنَّ الجنونَ وسيلةُ أهلِ المدينةِ للارتقاءِ بذاتِهِمُ. فهمُ حينَ مرَّ بهمْ نهرُهُ أدركوا أنَّهم لم يكونوا مجرَّدَ «أُنبوبِ وَعْيٍ» تحوَّلَ، يجري على أرضِهم، مثلَ باقي العواصمِ، نهرٌ غريبُ الطُّعومِ، ولكنَّهمْ طفرةٌ في ضميرِ الحضارةِ، أفضَتْ بهمْ، دونَ باقي الشُّعوبِ إلى الوعيِ بالذاتِ، من حيثُ لم يَفْطِنوا، وقَضَتْ بانتقالِهِمُ من عصورِ الجليدِ إلى ذروةِ الوعيِ بالذاتِ، دونَ المرورِ بباقي العصورِ كعصرِ النُّحاسِ وعصرِ الحديدْ.

ومن حسنِ حظِّ المدينةِ أنَّ الجنونَ بها لم يوفَّقْ إلى صنعِ أسلحةٍ للدَّمارِ العميمِ. فاكتَفَى أهلُها بصنوفِ السِّلاحِ البدائيَّةِ الصُّنعِ في قتلِهِمْ بعضَهُمْ، مدَّعين بأنَّ الذينَ أصابَهُمُ العقلُ لا بدَّ من قتلِهِمْ، حيثُ لا بدَّ للوعيِ من أن تُراقَ الدِّماءُ على سوحِ أمجادِهِ. ودماءُ المضحِّينَ صمّامُ عُرْسِ الجنونِ. الزموا عادةَ التَّضحياتِ، لأنَّ شروطَ الحضارةِ تقضي بأن يَصْحَبَ الوعيَ وعيٌ يُناقضُ ظاهرُهُ باطنَ العقلِ من أجلِ أن تتفتَّحَ في الممكناتِ البذورُ الخبيئةُ حيث الجنونُ هو العقلُ في ذروةِ الانفتاحِ على ما يُريدُ وما لا يُريدْ.

وهم الحياة والموت

في الوباءِ الذي اجتاحَ المدينةَ، فقد الشَّيخ أفراد أسرتِهِ السِّتَّة، ولم يبقَ أحدٌ غيره في البيت. زارتْهُ الملائكة في المنام، وأخبرته أنَّ سابعاً سيموتُ في بيتِهِ. أيقن الرَّجلُ أنَّه هو المقصود، إذ لم يعدْ في البيت حيٌّ سواه. رضيَ بالقدر المحتوم مطمئنّاً. اغتسل استعداداً للموتِ، ولبسَ كفنَهُ، وبقيَ مسجَّىً نحو القبلة بانتظار الأجل. في الخارج، استغلَّ اللُّصوص شبح الموت المخيِّم على المدينة، وصاروا يقتحمون حرماتِ البيوتِ بحثاً عن صيدٍ ثمينٍ. تسلَّل أحد اللُّصوص إلى البيت المنكوب، ووقع نظرُهُ على الشَّيخ «المكفَّن»، ولعلَّه ترحَّمَ عليه في سرِّه. لكنَّه لم يفكِّر في احترام الموت، فأيقظَتْ جلبتُهُ الشَّيخ المكفَّن من موتِهِ الموعود. كان اللِّقاء بين اللِّصِّ والميِّت صدمةً لكليهما. لم يحترم اللُّصُّ فاجعةَ الشَّيخِ، ممّا دفعه إلى النُّهوض، ناسياً أنَّه مسجَّى في كفنِهِ استعداداً للموت. وكان اللُّصُّ يتوقَّعُ كلَّ شيءٍ إلّا أن يعودَ إلى الحياةِ «ميِّت» احتجاجاً على لصوصيَّتِهِ. وما كادَ يرى الميِّت يتحرَّك، والكفن ينشقُّ، ليخرج منه صاحبُهُ حيّاً، حتّى خرَّ ميِّتاً.

لم يستوعب الصَّدمة. حينئذٍ أيقنَ الشَّيخ أنَّ الملائكة لم تقصدْهُ، حين أخبرتْهُ بموتِ سابعٍ في بيتِهِ.

ليست هذه قصَّة من قصص الواقعيَّة السِّحريَّة في أدب ماركيز، بل هي قصَّة حقيقيَّة جرت أحداثُها في بغداد في طاعون عام 1831م. وقد رواها المرحوم الدكتور عليّ الورديّ في كتابه «لمحات اجتماعيَّة»، مضيفاً إليها بطريقتِهِ المعهودة بالطَّرافة: «من المناسب أن أذكر هنا أنَّ هذا الرَّجل هو والد جدِّ كاتب هذه السُّطور».

حين بدأ الطاعون يجتاحُ بغداد في أواخر آذار، كان يحصد في اليوم الواحد ألف ضحيَّة. وفي الأسبوع الثاني منه، بلغت الجنازات ثلاثة آلافٍ كلَّ يوم. وفي آخر أيّام الوباء «قيل إنَّ عددَ الموتى في اليوم الواحد بلغَ أخيراً تسعةَ آلافٍ».

أطلق الناس على المرض اسم «الوهم». وصاروا يموتونَ بسببِ الوهمِ. يقول الورديُّ: «ينبغي أن لا ننسى أنَّ الكثير من الناس ماتوا دون أن يُصابوا بالطاعون، بل استولى عليهم الخوفُ فأماتَهم...والظاهر أنَّ هذا الرَّجل الذي تحدَّثنا عن قصَّته كادَ يموتُ بسببِ «الوهمِ»، ثمَّ تخلَّص من الموت بسببِ «الوهمِ» أيضاً».

وقبل كلِّ شيءٍ أودُّ أن أشير إلى أنَّ هذه الحكاية التي نقلها المرحوم الورديُّ عن جدِّ أبيه، كان قد نقلَها قبل ذلك بأكثرَ من ألف سنة القاضي التَّنوخيُّ في كتابه «الفرج بعد الشِّدَّة» فقال في سلسلة سند: «حدَّثني رجل قال: رأيتُ في المنام، أيّام الطاعون، أنَّهم أخرجوا من داري اثنتي عشرةَ جنازةً، وأنا وعيالي اثنا عشرَ نفساً، فماتَ عيالي وبقيتُ وحدي، فاغتممتُ وضاقَ صدري. فخرجتُ من الدار ثمَّ رجعتُ في الغد، فإذا لصٌّ قد دخلَ ليسرقَ، فطُعِنَ في الدار، فماتَ، وأُخرجتْ منها جنازتُهُ. وسرِّيَ عنّي ما كنتُ فيه، ووهبَ اللّٰهُ العافية والسَّلامة».

ولعلَّ التَّنوخيَّ نفسه نقلها عن الحكاية التي ذكر المبرِّد أنَّها حدثتْ في الطاعون الجارف في كتابه «التَّعازي والمراثي».

بالطَّبع من الممكن أن تكون هذه الحكاية قد حدثتْ عدَّة مرّات، بل يمكن أن تقع في زماننا هذا، ما دام الأمر يتعلَّق بوهمٍ من الأوهام. وفعلاً نستطيع أن نسمِّيَ هذه الحكاية «الحقيقيَّة» حكاية «الوهم». فمن الناحية السَّرديَّة، تتظاهر الحكاية بأنَّها تنطوي على شخصيَّتَين؛ الحالم بالموت، والحالم بالحياة. غير أنَّ المفارقة شاءت أن تقلب الأدوار، لتهبَ الموتَ لمن يحلم بالحياةِ، وتهبَ الحياةَ لمن يحلم بالموتِ. لكنَّ مشاركة الملائكة تعقِّد الحكاية

كثيراً. رأى الشَّيخ قبل الحادثة في المنام كأنَّ الملائكة تمرُّ في الزُّقاق لتسجِّل أعداد الضَّحايا في كلِّ بيتٍ، وقد سجَّلت في بيتِهِ سبعةَ أمواتٍ. ماتَ أفرادُ عائلتِهِ السِّتَّة، وتوقَّع أن يكونَ هو السابع. لم يعدْ هناك مجال. لكنَّ حضور الملائكة هنا هو حضور «رؤيا». والرُّؤيا إمّا أن تكون صادقة، وتتحوَّل إلى حقيقة، أو تكون كاذبةً، لتنتهي بـ«وهم». ونستطيع بدورنا أن نتخيَّل أنَّ اللُّصَّ نفسه رأى في حلم مَن يخبرُهُ بالذِّهاب إلى هذا البيت بالتَّحديد ليجد فيه كنزاً. لكنَّه ما إن وصل إلى البيت حتّى وجد أنَّ الكنز الذي وعدَهُ به الحلمُ هو «الموت». ثمَّة تبادل أدوار مذهل. يعيش من يَعِدُهُ الوهمُ بالموت، ويموتُ من يَعِدُهُ الوهمُ بالحياة. وحينئذ تنشقُّ الحكاية إلى حكايتين: حكاية الشَّيخ مع الملائكة، وحكاية اللُّصِّ مع الشَّياطين. تَعِدُ الملائكةُ الشَّيخَ بالموتِ في بيتِهِ، فيصدِّقُها ويستعدُّ للموت، لكنَّه لا يموت. وفي المقابل، تعد الشَّياطينُ اللُّصَّ بكنزٍ، لكنَّه يموت في بيت الشَّيخ. من تقاطع رؤيين كاذبتين، تولَدُ رؤيا صادقة ثالثة، لم يتوقَّعْها كلاهما. وفي هذه الرُّؤيا الثالثة، ينكشف زيف الرُّؤيين السابقتين، ينكشف أنَّ الموت ليس سوى «وهم»، كما كانت تسمِّيه عامَّة بغداد حينئذٍ. ولكن ينكشف بها أيضاً أنَّ الحياة هي الأخرى ليست سوى «وهم» يُروى. إذ لا تكتملُ الحياةُ إلّا بالسَّرد، ولا يكتملُ السَّردُ إلّا بالحياة.

مذكّرات حصاة

مِـن قبـلِ أَلْفَيـنِ جـاءَتْ هاهنـا امرأةٌ
كأنَّهـا نخلـةٌ فـي هامِهـا شُـعَلُ
تناوَلَـتْ حصـوةً فـي الأرضِ سـاقطةً
وقلَّبَتْهـا بـرفْـقٍ صـمتُهُ أَزَلُ
مَلْسـاءَ تنـفعُ مكـتوباً لمُرسـلِها
إن لـم يُتَـحْ لاجتيـازِ الفاصـلِ الرُّسُـلُ
ظـلَّتْ تُقلِّبُهـا فـي كفِّهـا زَمَنـاً
يحـدو بهـا الحـبُّ والإشـفاقُ والأَمَلُ
مـا مِـن بريـدٍ سـوى الأَحجـارِ ينتقلُ
إلـى أَقاصـي حـدودِ الدَّهْـرِ أو يَصِـلُ
تفحَّصَتْ سطحَها المصقولَ والتمَسَتْ
بهـا علامـةَ حـبٍّ مـا لَـهُ بَـدَلُ
ولـم تجـدْ غيـرَ أنفـاسٍ مُقَطَّعـةٍ
لهاثُهـا برحيـقِ الأرضِ يتَّصـلُ

فمسَّـحَتْها وَأَبْقَـتْ فوقَهـا أَثَـراً

لعاشـقٍ فـي سُـهوبِ الأُفْـقِ يرتحـلُ

أَبْقَـتْ إشـارةَ حـبٍّ قـادمٍ أَبَـداً

علـى الحصـاةِ وجـرحٍ ليـسَ يندمـلُ

ومـرَّ أَلْفـانِ مِـن عُمْـرِ السِّـنين بهـا

والجـرحُ يهتـفُ، والأشـواقُ تبتهِـلُ

وليـسَ مِـن أحـدٍ يأتـي يُـراودُهُ

بـأيِّ بَـوحٍ شـفيفٍ سـرُّها خَضِـلُ

حتّـى أتيـتُ أنـا والصَّمـتُ يغمرُنـي

وهاجـسٌ فـي ضميـرِ الغيـبِ يعتمـلُ

ألقيـتُ نظـرةَ إيمـانٍ ومعرفـةٍ

علـى الحصـاةِ، وشـوقٍ ظـلَّ يشـتعلُ

التقطتُهـا، وَتَمَلَّيـتُ التقاطتَهـا

مـن قبـلِ ألفيـنِ فيهـا يسـطعُ الخجلُ

مـن قبـلِ ألفيـنِ مـرَّتْ هاهنـا امـرأةٌ

أودى بهـا الحـبُّ والإيمـانُ والثَّمَـلُ

تلكَ الرِّسـالةُ لي مهما انطَـوَتْ ومَضَتْ

وكانَ بيـنَ زمانَينـا مَـدَىً جَلَـلُ

أحببتُهــا فتَلاقَينــا علــى مَهَــلِ
فــي لحظــةٍ يَتَــوارى عندَهــا المَهَــلُ
أَحْبَبْتُهــا فاخترَقْنــا فاصِــلاً جَبَــلاً
فــي نقطــةٍ خــارجَ الأزمــانِ تكتمــلُ
عِشْــنا حكايــةَ حــبٍّ مِن خــلالِ حصىً
ظلَّــتْ علــى هامــشِ الآمــادِ تحتفِــلُ

الأشباح في ظلمة المزرعة

تعوَّدا الالتقاءَ في المزرعة المجاورة، حين يتجمَّعُ الظَّلام الكثيف ويلتفُّ على بعضِهِ. يلتقيانِ بدون كلماتٍ في الغالب، يجلسانِ إلى جوارِ بعضِهما. وحين تتعمَّقُ الظُّلمة في داخلِهما، تمتدُّ يدُ أحدِهما باتِّجاه يد الآخر، فيتأكَّدُ أنَّها يدٌ إنسانيَّة، ليس فيها براثنُ ولا مخالبُ. يتشبَّثُ بها، ويتحسَّسُ الرَّسغَ والزَّند. هي يدٌ إنسانيَّة دونَ شكٍّ، مماثلة لليد التي تتحسَّسُها. في داخلهما حاسَّة سادسة تميِّز حيوانات الظَّلام، تضعُ لهما الطَّريق التي يسلكانِها، والحدودَ التي يتوقَّفانِ عندَها، دون أن يحتاجا إلى تبادل الكلمات حولها. تسري في داخلِهما قشعريرةٌ من نوعٍ ما. يتحرَّكُ الجسدانِ باتِّجاه بعضِهما؛ الصَّدر باتِّجاه الصَّدر، واليد باتِّجاه اليد. ومع أنَّهما يتبادلانِ تحسُّسَ أجزاءِ بعضِهما، فإنَّهما يظلّانِ منفصلينِ، متباعدين جدّاً، كأنَّما هما في كوكبينِ نائيين. يبلغ التَّعب ذروتَهُ، فيلهثانِ، ويسمحانِ للمسافة بينَهما بأن تتضاعفَ قليلاً، ثمَّ ينسحبانِ بهدوء، دون أن يودِّعَ أحدُهما الآخرَ. وفي الظَّلام التالي يعودانِ إلى الالتقاء في

المزرعة نفسها، وممارسة اللُّعبة نفسها، دون أن يرى أحدُهما الآخرَ.

كانت الحاسَّة الداخليَّة وحدَها تقودُهما إلى ما يفعلانِ. لم يسمعْ أحدُهما صوتَ الآخرِ يوماً ما، لم يعرفْ قساوة كلماتِهِ أو دفأَها. ففكَّرا معاً في ضرورة تبادل الكلمات. بالطَّبع كان كلٌّ منها يعرف جنسَ الآخرِ، لكنَّهما لم يجرِّبا تبادل المشاعر أو حتّى تبادل الكلمات. وفي ظلمة من الظُّلَم الكثيفة، قرَّرا أن يتبادلا الكلمات، أن يجرِّبا هل ساقتْهما هذه الظُّلمة إلى تطوير بعض المشاعر في الظِّلِّ. في الظُّلمة همسَ الصَّوتُ الخشن:

ـ تعرفينَ؟ لا أعرف حتّى اسمكِ!

ـ وأنا أيضاً لا أعرف حتّى اسمكَ، أعرفُ فقط أنَّكَ شبحٌ يلتقي به شَبَحي.

ـ بعد أربعِ سنواتٍ من الالتقاء في ظلمة المزرعة، هل نستطيع أن نسمِّيَ ما بيننا «حبّاً»؟

ـ لا أعتقد، نحن فقط شبحانِ. لسنا كائنينِ بشريَّينِ.

ـ لكنَّنا نلتقي هنا كلَّ يومٍ، ونشتاق إلى بعضنا حين نفترق.

ـ نعم، لكنَّنا لا نلتقي لأنَّنا عاشقانِ، بل لأنَّنا شبحانِ، ولعلَّنا كارهانِ لبعضِنا أكثر ممّا نتصوَّر. وربَّما لهذا السَّبب لم نتبادل الكلماتِ يوماً ما.

ـ وهل تعتقدينَ بضرورةِ أن نفترقَ؟

ـ أعتقد أنَّ تبادل الكلمات سوف يُفضي بنا إلى الافتراق. الكلام خَطِرٌ جدّاً. الكلام نورٌ، ونحن أشباحٌ تخشى النُّور، وتعيش في هياكل الظُّلمة.

ـ تخافينَ من الكلام! أتعرفين؟ ربَّما كنّا نتبادل الكراهية، لا الحبَّ، حين نلتقي في الظُّلمة، ونخرجُ منها في صمتٍ مطبقٍ! أشعر أنَّنا إذا توقَّفنا عن الالتقاء في ظلمة المزرعة، فربَّما سنحسُّ بالحنين إلى بعضِنا، وبحاجتنا إلى الالتقاء في النُّور، وحينئذٍ، وحينئذٍ فقط سوف يكون لقاؤُنا علامةَ حبٍّ لا كراهيةٍ. ربَّما لهذا السَّبب، ربَّما لأنَّنا أشباح لا تلتقي إلّا في الظُّلمة، كنّا نخاف من تبادل الكلمات، ومن الالتقاء في أعراس النُّور.

رسالة بحّار غريق

عزيزتي الفيلسوفة هيباشيا؛

أكتبُ لكِ هذه الرِّسالة، وأضعُها بعد أن تكتملَ في قنّينة، وأرمي بها إلى عرضِ البحرِ. ولستُ أدري أيُّنا سيصل قبل الآخر، أو بعبارة أدقَّ، مَن منّا أنا والرِّسالة سيُقدَّرُ له أن يصلَ إلى الشاطئ. لقد ابتلعَ الموجُ البحّارة الذين كانوا معي، وبقيتُ وحدي معلَّقاً في متاهة الطَّريق بين أثينا والإسكندريَّة، والسَّماء والبحر، والحياة والموت. أعرف أنَّ علاقتَنا لم تكُنْ بالعلاقة الوثيقةِ التي تتيحُ لي أن أكتبَ لكِ رسالةً ممّا وراء هذا العالم. فنحن لم نكدْ نلتقي سوى مرَّتين؛ مرَّةً عند مدخل الميوزيوم على ساحل الإسكندريَّة، ومرَّةً أُخرى في الطَّريق أمام حانة «النَّجم الأخير». لكنَّ الحواراتِ التي خضنا فيها من وراء تلاطم الأمواج، والمشاعر التي ضاعفتْها بمرور السِّنين، تسمح لي أن أتخيَّلَ أنَّكِ ستتقبَّلينَ رسالة صديقٍ بعيدٍ، وربَّما ستكون حين تصل إليكِ رسالةً من وراء عالمٍ آخر.

في هذه الوحدة الشاسعة المترامية، وإذ تتراقصُ أمام ناظري أشباحُ العالم السُّفليِّ، لا أجدُ من أُفكِّرُ به سوى هيباشيا الجميلة الوديعة، التي لم أستطعْ للأسف أن أُوثِّقَ علاقتي بها أكثر من لقاءَينِ عابرَينِ. ولكنْ ربَّما كانت هذه الرِّسالة ستُدشِّنُ علاقةً من نوعٍ آخر، وربَّما تجعلُنا، إذا سارَ كلُّ شيءٍ كما نريد، أصدقاء إلى الأبد، في علاقة حميمة دافئة المشاعر.

حين أُودِعُ هذه الرِّسالة وأضعُها في قنِّينة، أرميها في أمواج البحر المتلاطمة، لستُ أدري أيٌّ منّا سيصل قبل الآخر، أنا أم القنِّينة، ومهما يكُنِ الأمرُ، فتأكَّدي أنَّكِ كنتِ الشَّيء الوحيد الذي فكَّرتُ به مع اصطراع الأمواج، وتلاطم أشباح الموت. تأكَّدي أنَّني لم أستطعْ أن أستحضرَ شيئاً واحداً من هذا العالم بأسرِهِ سوى عينيكِ الواسعتين. تقبَّلي حبِّي المترامِيَ مثل هذا البحر الصاخب أمامي.

في اليوم الثالث عشر من فبراير، سنة 415 للميلاد، كانَتِ الفيلسوفةُ هيباشيا تستقلُّ عربتَها عائدةً من سفرةٍ، وفي الطَّريقِ بينَ مكتبةِ الإسكندريَّة والمتحف، تصدَّى لها مجموعةٌ من الغوغاءِ، وأدخلوها إلى باحةِ إحدى الكنائسِ، وهناكَ ذبحوها بسكاكينِهم، وفتكوا بأشلائها مثلَ الحَيَواناتِ المسعورة. وبعد ذلك بشهرينِ،

رأى بعضُ البحّارة في شواطئ إيونيا قنّينةً تقتربُ من الشاطئ. وحينَ فتحوها وجدوها رسالةً من بحّارٍ غريقٍ إلى الفيلسوفة الإسكندرانيَّة هيباشيا. ومنذ ذلك الحين حتّى اليوم، لم تُعرَفْ هويَّتُهُ ذلك البحّار الغريق، ولم يُعرَفْ هل نجا أو ابتلعَهُ البحرُ. كلُّ ما بقيَ من قصَّة هذين العاشقين هو رسالةٌ نجَتْ من الغرق في بحرٍ آخرَ، دليلاً على حبٍّ مستحيلٍ ربَّما لم يحصلْ أبداً.

حكاية عاشق الصُّورة

الحكاية الأُولى سمّاها ابن النَّديم «حكاية عاشق الصُّورة»، وتَرِدُ نسخةٌ منها في «ألف ليلة وليلة»، كما تردُ نسخة أُخرى في كتاب «نزهة الأشواق في أخبار المتيَّمين والعُشّاق»، وقد نقلَها عنه كتاب مخطوط عنوانُهُ «تحفة الظُّرفاء وفاكهة الخلفاء». وخلاصة هذه الحكاية كما وردت في هذه الكتب أنَّ جميلة بنت والي البصرة في زمن هارون الرَّشيد كانَتْ فريدةً في جمالها، وقد خطبها ابن عمِّها الصَّيدلانيُّ لكنَّها رفضتْهُ، لأنَّها سمعتْ بجمال ابن الخصيب، حاكم مصر، وأحبَّتْه دون أن تراه. حينئذٍ فكَّرَ ابن عمِّها الصَّيدلانيُّ باستدراج ابن الخصيب من مصر إلى بغداد، عساه يتمكَّنُ عن طريقه من اختطاف ابنة عمِّهِ. وكانت الوسيلة لاستدراجه هي رسم صورة جميلة في كتاب يسعى إلى إيصاله لابن الخصيب. وقد نجح في هذه الوسيلة، فما كاد الكتاب يقع في يد ابن الخصيب، حتّى هام بحبِّ جميلةَ، وترك مُلْكَ أبيه قادماً إلى بغداد. وتشاء المصادفات أن ينزل في بيت الصَّيدلانيِّ، الذي ساعده في الوصول إلى

البصرة. وأفلح ابن الخصيب في لقاء جميلة والصُّعود بها إلى بغداد. لكنَّ الصَّيدلانيَّ كان يترصَّدُ بهما في الطَّريق، فاختطفَ جميلة، وترك ابن الخصيب عُرضةً للمغامرات التي توشك أن تعصفَ بحياتِهِ، ولا يستطيع اجتيازها والخلاص منها إلّا بعد وصول مبعوث أبيه إلى الخليفة هارون الرَّشيد. وبعدها ينحلُّ كلُّ شيءٍ، تنزل العقوبة بمن أراد التَّخلُّص منه، ويصطحب ابن الخصيب محبوبته جميلة ويعود إلى مصر.

تقع نسخةٌ أُخرى من الحكاية في أواخر العصر العثمانيِّ. وخلاصة هذه الحكاية الثانية أنَّ رسّاماً بريطانيّاً كان يتجوَّلُ في أهوار ولاية البصرة العثمانيَّة، والتقى مصادفةً بفتاة اسمُها جميلة بنت المُعَيديِّ، لا تقلُّ جمالاً عن نظيرتها جميلة بنت والي البصرة قبل أكثر من ألف سنة. وحين انبهرَ بجمالها رسمَ لها عدَّةَ لوحاتٍ، وقعتْ إحداها بيد ضابطٍ بريطانيٍ، فهامَ بها حبّاً، وقرَّرَ السَّفر إلى ولاية البصرة، التي كان قد احتلَّها الإنكليز قبل سنتين. وقد نجح هذا الضابط البريطانيُّ في الوصول إلى جميلة بنت المُعَيديِّ، وأقنعَها بالسَّفر معه إلى بريطانيا عن طريق باخرة استقلَّها في الفاو متَّجهةً إلى الهند. وعلى إثر ذلك اشتهَرَتْ صورة جميلة بنت المُعَيديِّ بوصفها الصُّورة التي عشقَها الضابط البريطانيُّ وهام بها حبّاً.

أمّا النُّسخة الثالثة من الحكاية فقد حصلتْ نتيجة خطإٍ ارتكبه أحد الرَّسّامين، فأحدَثَ فيها خَلَلاً زمنيّاً لا علاجَ له. والسَّبب أنَّ الصَّيدلانيَّ في الحكاية الأولى لم يرسمْ صورة ابنة عمِّهِ جميلةَ بنفسه، بل سلَّمَها إلى رسّامٍ محترفٍ في زمنه. أعطاه الكتاب والصُّورة منفصلين ودلَّهُ على موضع نقلها فيه. أخذَهما الرَّسّام إلى بيته، ووضع الصُّورة فوق الكتاب. لكنَّه ما كاد يفتح الباب حتّى هبَّت ريحٌ خفيفةٌ، حملت الصُّورة إلى مجموعةٍ أخرى من الصُّور. ولمّا عاد الرَّسّام إلى موضعِهِ بحثَ عن صورةِ جميلَةَ بنت والي البصرة، فوجدَها مع صُوَرٍ أُخرى، فالتقطَ صورةً منها متوهِّماً أَنَّها هي. والحقيقة أَنَّها كانت صورة جميلةَ بنتِ المُعَيديِّ.

ذهب الكتاب إلى مصر، ووقع في يد ابن الخصيب، فهامَ حبّاً بصورة جميلة بنت المُعَيديِّ. ولمّا وصل ابن الخصيب إلى البصرة، أدرك أنَّ في حكايته تفاوتاً زمنيّاً لا علاجَ له. ولم يكن أمامه سوى خيارٍ واحدٍ، ألا وهو أن يتنكَّرَ بزيِّ ضابطٍ بريطانيٍّ في القرن الثالث الهجريِّ. وخلافاً لسابقه أو لاحقه الضابط البريطانيِّ، ما دام الأمر يتعلَّقُ بالسَّرد، فقد أقنع ابن الخصيب حبيبته جميلة بأن يستقلّا مركباً ممّا كان يُسمَّى حينئذٍ بالشَّبّارة، ويتَّجها إلى بغداد، بدلاً من التَّوجُّه إلى جنوب البصرة. كان يستشعر بوجود خطإٍ زمنيٍّ ما، لكنَّه لم يستطعْ معرفته. حين وصل

مركبُهم بالقرب من واسط، وجد أنّه لم يكن في عصر هارون الرَّشيد، بل في أواخر العصر العثمانيِّ. وكان الجيش العثمانيُّ يحاصر الجيش الإنكليزيَّ في الكوت. وما دام يرتدي بدلة ضابط بريطانيٍّ، فقد ألقى العثمانيُّون القبض عليه، وخطفوا منه حبيبته جميلة، كما فعل الصَّيدلانيُّ مع ابن الخصيب من قبل. وحين سيقَ أسارى الجيش الإنكليزيِّ مشياً من بغداد إلى إسطنبول ماتَ عددٌ كبيرٌ من هؤلاء من شدَّة البرد. ومن المصادفة أنَّ ابن الخصيب، الذي ارتدى بدلة ضابط إنكليزيٍّ، كان من بين هؤلاء الموتى. وقد عثر قرويُّون من الشَّمال، بعد عدَّة سنوات، على جثَّةِ شخصٍ يرتدي زيَّ ضابطٍ بريطانيٍّ، ويحمل في جيبه صورة فتاة من القرن الثالث الهجريِّ. وحتّى الآن لا يعرف أحدٌ هل تعود هذه الجثَّة لابن الخصيب أم لضابط بريطانيٍّ، وهل الصُّورة هي صورة جميلة بنت والي البصرة أم جميلة بنت المُعَيديِّ.

العبور بين الأزمنة

قبلَ ألفيَّةٍ مِن سنينِ البسيطَةِ، لا أتذكَّرُ كيفَ خرجْتُ من الجمعِ، مُسْتَغْفِلاً زَمَني ذاكَ، أو ربَّما كيفَ تمكَّنْتُ من تركِ عصرِ الحكايةِ، والقفزِ نحوَ زمانِ الحياةِ الجديدةِ. كانَ رفاقي هناكَ يظنُّونَ أنِّي سأهربُ منهمْ، إذا ما وصلْنا إلى «قريةِ الزَّعفرانِ». ولكنَّني في الحقيقَةِ قرَّرتُ في سرِّ نَفْسي الخروجَ من العصرِ، لا مِن حدودِ المكان.

وفي واقعِ الأمرِ، ما كانَ في رفقتي مَن أحسَّ بما كنتُ أُضمِرُهُ. إذ أُتيحَتْ ليَ الفرصةُ المرتجاةُ بأنِّي مرَرْتُ هناكَ على «قريةِ الزَّعفرانِ»، وأحْسَسْتُ فيها بخيبةِ مَن فزَّ من حُلُمٍ ساورَتْهُ به حيَّةٌ. فلَقَد كانَتِ الزَّعفرانُ بلاداً بلا حُلُمٍ، ومكاناً بلا زَعْفران.

على أنّني لستُ أكتمُ أنِّي من البدءِ كنتُ أُفكِّرُ أنَّ الخروجَ من العصرِ، لا من حدودِ المكانِ، يشكِّلُ مشروعَ عُمْري، فقد صرتُ أعرفُ أنَّ زَماني القديمَ بخيلٌ عَلَيَّ بأن ألتقي فيه مثلَكِ. مِن هاهُنا

عنَّ لي أن أُفارقَهُ، باحثاً عن زمانٍ تكونينَ فيهِ. وصادَفَ أنِّي تسلَّلْتُ مِن ثُقُبٍ في الحكايةِ نحوَ زَماني الجديدِ، الذي فيهِ أنتِ تعيشينَ، بالضَّبطِ في مثلِ هذا الزَّمان.

ويمكنُني القولُ إنَّ زماني المضاعفَ، ما دمْتُ قد عشتُ أكثرَ من ألفِ عامٍ، قليلٌ بحقِّكِ، إذ لم يُتَحْ فيه لي أن أتجوَّلَ في ظلِّ أشجارِ روحِكِ إلّا قليلاً من الوقتِ. لكنَّني سأحاولُ تمديدَ هذا الزَّمانِ القليلِ، بفتحِ ثقوبِ الحكايةِ حتّى تطولَ، عساني سأصطادُ بُعْداً قريباً يُطِلُّ على أَبَدٍ يتخفَّى بها، أو يشيرُ إلى حالةٍ تتخطَّى انفلاتَ الكيانْ.

وها أنّني في زماني الجديدِ أُريدُ لقاءَكِ، لكنَّني لستُ أقدرُ. كيفَ، وما عادَ يفصلُ ما بينَنا زَمَنٌ كالذي كانَ؟ بالطَّبعِ لستُ أشكُّ بأنَّ المسافةَ ما بينَنا لم تكنْ في المكانِ، ولكنَّها في الزَّمانِ. وحينَ انتقلتُ بروحي وَجِسْمي إلى زَمَنٍ أنتِ فيهِ تعيشينَ، أدركتُ أنَّ المسافةَ ما بَرِحَتْ بينَنا عائقاً. فكيفَ يكونُ بوسعي اختراقُ المسافةِ؟ لا أستطيعُ اختراقَ المسافةِ إلّا بإرسالِ روحي ممرّاً لروحِكِ، كي تَعْبُري مِن ثُقوبِ الحكايةِ نحوي. وحينئذٍ تُدركينَ بأنِّي تسلَّلتُ نحوَكِ بالضَّبطِ في مثلِ هذا الزَّمانِ، لأقولَ أمامَ افتراضي بأنَّكِ في زَمَني، وافتراضِكِ أنِّيَ في زَمَنٍ أنتِ فيهِ

تعيشينَ؛ في كلِّ ألفيَّةٍ أنتِ لي، وَأَنا طَوعُ أمرِكِ، رَغْمَ المسافاتِ، رَغْمَ قيودِ المكانِ، وسجْنِ الزَّمان.

أوجاع عروس الخلافة

كانَتْ خديجةُ (وهذا هو اسمُها الحقيقيُّ، وليس اسم الأميرة الفارسيَّة «بوران» الذي اشتهرَتْ به) في التاسعةَ عشرةَ من العمر حين خطبَها الخليفةُ المأمون. وها هيَ الآنَ في الثَّمانين من العمر، وقد مرَّ على زواجِها واحدٌ وستُّون سنةً، وعلى ترمُّلِها اثنتانِ وخمسون سنةً، وهي مسافة زمنيَّة كافية تستطيع من خلالها أن ترى الأحداثَ بوضوحٍ.

تستطيع أن تعودَ واحداً وستِّين سنةً إلى الوراء، لكي تتذكَّرَ حفلةَ زواجِها الباذخة، التي صارتْ واحدةً من أشهر حَفَلاتِ الزَّواج في التاريخ، وبقيَتْ على امتدادِ العصورِ مضربَ المثلِ على الإنفاق المهول. لكنَّها تعرفُ الآن، بوضوحٍ لم تتخيَّلْهُ من قبلُ، أنَّها لم تكنْ كذلكَ بفضلِ الخليفة زوجِها، بل بفضلِ أبيها الحسن بن سهل. بالنِّسبة إلى أبيها، كان زواجُها من الخليفة خياراً استثنائيّاً لعائلتِها وله شخصيّاً، فكان على استعدادٍ للتَّضحية بكلِّ ما يملك احتفاءً بهذه المناسبة الخالدة. أمّا هي فقد أرضى غرورَها حينئذٍ

أن يتركَ الخليفةُ نساءَ الإمبراطوريَّة كلَّها، ويقعَ اختيارُهُ عليها. أعمى الفرحُ عينيها، فلم تَرَ ما بعد ذلك من أحداثٍ. والحقيقة أنَّها لم تكنْ في موقعٍ تستطيع الاختيار به، لا أمامَ الخليفةِ، ولا أمامَ أهلِها. كان الخيار الوحيد المتاح أمامَها هو أن تفرحَ، لأنَّها حظيَتْ برضى الخليفة دون ملايين النِّساء الخاضعات لإمبراطوريَّتِهِ المترامية من خراسانَ إلى المغرب.

بعد انقضاء شهر العسل، اكتشفَتْ خديجةُ أنَّها تزوَّجت بالخليفة، لكنَّه لم يتزوَّجْ بها. كانت أعباءُ الاحتفاظ بالخلافة تسرقُهُ منها شهوراً طويلة، يسافرُ بها، ويلتقي بالقادة والعُلَماء. وما زالت تتذكَّرُ كيف فارقَها ستَّةَ أشهرٍ متواصلةٍ قبل وفاتِهِ في طرسوسَ. تتذكَّرُ أيضاً أنَّها حزنَتْ كثيراً لموتِهِ، كثيراً جدّاً، لكنَّ حزنَها في واقع الأمر كان على نفسِها لا عليه. شعرَتْ أنَّ الموتَ قبضَ على قلبِها مثلما يقبضُ صقرٌ على فرخٍ وليدٍ. أرادَتْ أن تعبِّرَ عن أحزانها شعراً، فكتبَتْ ترثيه وترثي نفسَها في وقتٍ واحدٍ:

أَسْعِداني عَلَى البُكا مُقْلَتَيّا
صرتُ بعدَ الإمامِ للهمِّ فَيّا
كنتُ أسطو على الزَّمانِ فلمّا
ماتَ صارَ الزَّمانُ يسطو عليّا

بعد أكثرَ من ستِّينَ سنةً على زواجِها، وأكثرَ من خمسينَ سنةً على ترمُّلِها، اعتصرَ الألمُ قلبَ خديجةَ، لأنَّها لم تحبَّ المأمونَ في يومٍ من الأيّام.

ليلة مقتل الخليفة

قبلَ مقتلِ المتوكِّل بأُسبوعٍ، كان قد أمرَ بالاحتفال بيومِ النُّثار، وهو احتفالٌ يُترَكُ فيه الوردُ يتموَّجُ في الهواء، فيطيبُ عطرُهُ وشميمُهُ ومنظرُهُ. لكنَّ الحاشية أخبرتْهُ بأنَّ احتفال النُّثار لا يصحُّ في هذه الفترة، لعدمِ وجود الورودِ، فأمرَ المتوكِّل بسكِّ دراهمَ ملوَّنة تطيِّرُها الرِّيحُ، ويلتقطُها الخَدَمُ المحيطون به بدلَ الزُّهور. وفي ليلةِ مقتلِهِ أجرى الاحتفال مبكِّراً بيوم النُّثار، وجمعَ إليه مَن أحبَّهم من حاشيته؛ عبادة المهرِّج، لكي يمثِّلَ أمامَهُ دور الأصلع البطين، وجاريته الجميلة محبوبة، لكي ترقصَ وتغنِّيَ في أثناء السُّكر، وبُغا الشَّرابيّ لكي يوزِّعَ الخمور على أضيافِهِ بمعرفتِهِ، ووزيره الفتح بن خاقان ليجلسَ إلى جوارِهِ.

تعتمد الخطَّة بكاملها على ذكاء بُغا الشَّرابيِّ، خادمِ المتوكِّل وربيبِهِ وموضعِ ثقتِهِ. بعد أن يصل السُّكر بالجُلَساء إلى درجة الثَّمَل، يقوم بُغا الشَّرابيُّ، ما دام الصاحيَ الوحيدَ بينَهم، بإخراج الجميع من الجلسة، والإبقاء على أقلِّ عددٍ ممكنٍ من مرافقي

الخليفة، ثمَّ يُغلِقُ جميع الأبواب، ويفتح بابَ الشَّطِّ وحده. وخلف باب الشَّطِّ، يقف بغلونُ التُّركيُّ، وباغرُ، وموسى بن بُغا، وهارونُ بن صوارتكينَ. وهم من أقرب المماليك الأتراك إلى قلب المتوكِّل، وقد هيَّأوا سيوفَهم وخناجرَهم للَّحظة الموعودة.

التقطَ الخدمُ عشرين مليون درهمٍ نثرَها الخليفة في احتفال النُّثار، وأدَّى عبادة المخنَّث جميع الأدوار التي طُلِبتْ منه، ورقصتْ محبوبةُ في أحضان المتوكِّل، وقد نقشتْ على خدِّها اسمَهُ بالمسك والعنبر. وقبل أن ينتصفَ اللَّيل بقليلٍ، كان بُغا الشَّرابيُّ هو المسؤول عن تهيئة المشهد، الذي سيتكرَّرُ مراراً في التاريخ قبل المتوكِّل وبعدَهُ. فأخرج بُغا جميع الحاضرين، إلّا مَن أمرَ الخليفةُ باستبقائِهم، وهم الوزير الفتح وعبادة ومحبوبة، وثلاثةٌ من الخدمِ. فأغلقَ جميعَ الأبوابِ، وأحكمَ إغلاقَها بالطَّريقة التي يطمئنُّ إليها. التفتَ إلى الخليفةِ وجُلَسائِهِ الثَّلاثة، وقد فتكَ بهم السُّكر والثَّمَلُ، وذهبَ باتِّجاه باب الشَّطِّ لفتحِهِ. كان المماليك الأربعة ينتظرونَ خلف الباب، فأمرَهم بالدُّخول واستحثَّهم على الإسراع بقتلِهِ، لأنَّهم إذا تردَّدوا فسيُقتَلون. انضمَّ إليهم هو نفسُهُ، بعد أن أخرجَ خنجراً يبدو أنَّه أخفاه في مكانٍ ما، وهجمَ الخمسةُ على الخليفةِ ووزيرِهِ. تقافزَ عبادةُ ومحبوبةُ إلى زاويةٍ بعيدةٍ، وقد انكمشا على نفسيهما من هولِ الصَّدمة. أمّا

الفتح فصاحَ بالمماليك: أيُّها الكلابُ، لكنَّ أحدَهم أسرعَ إلى إسكاتِهِ بسيفِهِ، وهو يقول: اسكتْ يا خنزيرُ.

فتحَ الخليفةُ عينيه بصعوبةٍ لشدَّة ثَمَلِهِ، وشعرَ بسيفٍ ينغرزُ في أحشائِهِ. نظرَ إلى الجميع نظرةَ مندهشٍ، ولمّا رأى الخنجرَ في يد بُغا الشَّرابيِّ، رفع عينيه نحوَهُ وخاطبَهُ بكلمةٍ ظلَّ صداها يتكرَّرُ عبر التاريخ: حتّى أنتَ يا بُغا! وانطفأتْ عيناه إلى الأبد. أمّا محبوبةُ فقد أُصيبتْ بصدمةٍ نفسيَّة لم تسمحْ لها بالغناء بعد أن انتقلتْ ملكيَّتُها إلى المماليك الأتراك الذين قتلوا سيِّدَها، وقد أعربتْ عن حزنها بشعرٍ اشتهرَ:

أيُّ عيشٍ يَلَذُّ لي	لا أَرَى فيهِ جعفرا
مَلِكٌ قَد رأيتُهُ	في نجيعٍ مُعَفَّرا
كلُّ مَن كانَ ذا خبا	لٍ وسُقْمٍ فَقَد برا
غيرَ محبوبةَ التي	لو تَرَى الموتَ يُشتَرى
لاشْتَرَتْهُ بما حَوَتْـ	ـهُ يَداها لِتُقْبَرا

حكاية الشَّيخ سمعان

لم يَعُدِ الشَّيخ صنعان قادراً على الاحتمال، أو على كتمانِ مشاعرِهِ. ولذلك قرَّرَ أن يتركَ حلقةَ مُريديهِ وتلامذتِهِ، ويتَّجهَ إلى بيتِ محبوبتِهِ، ضارعاً بينَ يَدَيها. وحالما عرفَتْ ماريّا بحبِّهِ لها، فقد أرادَتْ إذلالَهُ، وتهشيمَ كبريائِهِ حتّى الثُّمالةِ. وما كادَ يصارحُها بحقيقةِ مشاعرِهِ نحوَها، حتّى أعلنَتْ عن استغرابها، لأنَّهما من دينينِ مختلفينِ. رفعتْ ماريّا عينيها، وقد ارتسمَ التَّقطيب على جبينها قليلاً وقالتْ: حضرةَ الشَّيخ صنعان، شرطي الأوَّل للاقترانِ بكَ أن تغيِّرَ اسمَكَ من الشَّيخ صنعان إلى الشَّيخ سمعان. تعالَ بعدَ أسبوعٍ، إذا صارَ اسمُكَ الشَّيخ سمعان.

ذهبَ الشَّيخ صنعان، وعادَ بعد أسبوعٍ، وطلبَ من الخدم أن يخبروا محبوبتَهُ أنَّ الشَّيخ سمعان على الباب. رحَّبَتْ به ماريّا وقالتْ: يا حضرةَ الشَّيخ سمعان، شرطي الثاني أن تغيِّرَ دينَكَ. فليس منَ المعقول أن نقترنَ ونحنُ على دينَينِ مختلفَينِ. إذا كنتَ قادراً على ذلك، فتعالَ بعدَ أسبوعٍ.

تردَّد الشَّيخ سمعان كثيراً في قبول هذا الشَّرط، وطوالَ أسبوعٍ، بقيَ يتقلَّبُ على أحرَّ من الجمر. ماذا يقول لمريديهِ وتلامذتِهِ؟ ماذا يقول لتاريخِهِ الذي رسمَهُ بالحبرِ والدَّمِ والدُّموع؟ كيف يضحِّي بدينِهِ؟ لقد ضحَّى باسمِهِ، ما دام الاسمُ ليس سوى علامةٍ. ولكنْ دينَهُ؟ كيف يستطيعُ ذلك؟ وقبل أن ينتهيَ الأسبوع، اتَّخذ الشَّيخ سمعان قرارَهُ، وذهبَ إلى بيت محبوبتِهِ، وأخبرَها أنَّه رضيَ بالشَّرط الثاني. رفعتْ ماريّا عينيها باتِّجاهِهِ وسألَتْهُ: يا شيخُ سمعان، كم عددُ مُريديكَ؟ أجابَها الشَّيخ سمعان: أربعونَ مُريداً. قالتْ: يا شيخُ سمعان، سوف أُعطيكَ أربعينَ خنزيراً لترعاها عند سفحِ الجبلِ أربعينَ يوماً. إذا قبلتَ بهذا الشَّرط، فتعالَ بعدَ أسبوعٍ.

كان من الواضح أنَّ الشَّيخ سمعان قد خسرَ كلَّ شيءٍ، ولم يمتلكْ شيئاً. فلكي يمتلكَ ماريّا، خسرَ اسمَهُ ودينَهُ وهويَّتَهُ، خسرَ سمعتَهُ ووجودَهُ. وبعدَ أسبوعٍ، ساقَ قطيعَ الخنازيرِ الأربعينَ باتِّجاه الجبل، مؤمِّلاً هناك أنْ يمنحَهُ الجبلُ فرصةَ التَّأمُّل في ذاتِهِ، فيما فعلَهُ، وفيما لم يفعلْهُ، فيما كانَهُ، وفيما سوفَ يكونُهُ. وطوالَ تسعةٍ وثلاثينَ يوماً، تعلَّمَ الشَّيخ سمعان كيف يحبُّ الخنازيرَ، كيف يحنو عليها مثلما كان يحنو على مريديه. تعوَّد أن يتركَ الخنازير تسرحُ على صفحةِ الجبلِ، ويجلس هناك مفكِّراً أنَّه أضاعَ عمرَهُ، أضاعَ هويَّتَهُ ووجودَهُ. هل أغراهُ إبليسُ؟

هل خدعَهُ الشَّيطان؟ هل أذنبَ ذنباً لا يُغتفَرُ ليُعاقَبَهُ اللّٰهُ هذا العقابَ المريرَ؟

في اليومِ الأربعينَ من رحلةِ رَعْيِ الخنازيرِ، كان الشَّيخ سمعان جالساً القُرْفُصاء، وفجأةً بدأ أحدُ الخنازير يتشمَّمُ حولَهُ، وشيئاً فشيئاً أخذَ يبتعدُ، كأنَّما هو يريد من الشَّيخ أن يتبعَهُ، ليسحبَهُ إلى مكانٍ ما. تبعَهُ الشَّيخ سمعان مستسلماً، وعند منحنىً ما في الجبل، اختفى الخنزيرُ، وبدأ يظهرُ شبحٌ ما، كلَّما اقتربَ منه الشَّيخ سمعان، انكشفَ عن ملامحِ محبوبتِهِ ماريّا. قالتْ له: يا شيخُ صنعان، اعلمْ أنَّ اللّٰه أراد اختبارَ إيمانِكَ وامتحانَ نيَّتِكَ. لقد كنتُ منذ مدَّةٍ مديدةٍ أريد الالتقاءَ بك والارتماءَ بين يديكَ، حتّى جاءَني هاتفٌ في الحلم ذات مرَّةٍ بأنَّكَ ستأتي إليَّ ضارعاً. ولم أطلبْ منكَ ما طلبتُهُ إلّا بأمرٍ منه. وقد زارَني الهاتف نفسُهُ أمسِ وطلبَ منّي أن أجيء إليكَ لأخبرَكَ بأنَّكَ انتصرتَ. لقد كسبتَ الرِّهانَ. أردتُ إذلالَكَ، فانتصرتَ عليَّ وأذللتَني. أنت كسبتَ الرِّهانَ، يا شيخُ صنعان. كلَّما خسرتَ ذاتَكَ ملكتَها، وباعتناقِكَ شريعةَ الحبِّ، اكتسبتَ جميعَ الشَّرائع. وأنا أُعلنُ أمامَكَ الآن أنَّني أدينُ بدينِكَ، وأنا واحدةٌ من تلامذتِكَ ومُريديكَ. فمَنْ يتخلَّ عن كبريائِهِ من أجلِ الحبِّ يَفُزْ بها، ومَن يتخلَّ عن ذاتِهِ من أجلِهِ يمتلكْها.

العثور على حجر الفلاسفة

قرَّرَ حسن البهلول الخروجَ للبحثِ عن حجرِ الفلاسفة. كان يحاولُ الإنصاتَ إلى نداء صوتِهِ الداخليِّ، لكنَّه كان يعرفُ ذلك الجانبَ المظلمَ العميقَ الذي يسكنُ في قرارةِ روحِهِ. وقد أصرَّ على تحاشيه بأيِّ ثمنٍ. سوف يتجنَّبُ بقدر ما يستطيعُ سماعَ نداءِ الجشع في ضميرِهِ، ويحاول الاستسلامَ لطمأنينةِ الرِّحلة بعدَّتِهِ الزَّهيدة في الخُرْجِ البسيطِ، والأكلِ من نباتِ الأرضِ، والحلمِ بالعثورِ على حجر الفلاسفة. لن يسمحَ للجانب المظلم في ذاتِهِ أن ينسفَ أحلامَهُ، كما فعلَ مع ذلك المتشرِّد في «كليلة ودمنة»، حين عثرَ على كنزٍ في الصَّحراء، واستثقلَ أن يحملَهُ وحدَهُ، فاستأجرَ لحملِهِ رجالاً، وطلبَ منهم أن يأخذوه إلى بيتِهِ. وحين فرغَ الكنزُ تماماً، ذهبَ إلى بيتِهِ، فوجد الرِّجال قد أخذوا ما حازوه لأنفسِهم، ولم يتركوا له أيَّ شيءٍ على الإطلاقِ.

انطلقَ حسن البهلول في رحلتِهِ إلى الجبال، وشدَّ على بطنِهِ حزاماً من حديدٍ، ليجرِّبَ مفعولَ الأحجارِ عليه. وظلَّ يتنقَّلُ من

قريةٍ إلى قريةٍ، بلا زادٍ، ولا عدَّة، سوى خرجِهِ البسيط، ومحاولتِهِ تحاشيَ النِّداءِ المظلمِ في داخلِهِ. كانَ يلتقطُ الحجرَ، ويمرِّرُهُ على حزامِهِ، ثمَّ يرمي به، دون أن يحلمَ بما هو أبعدُ من ذلك. بالطَّبع كانت تخالطُهُ أحياناً الرُّؤى السَّوداء بأنَّ حجرَ الفلاسفةِ ربَّما لا يزيد عن كونِهِ أسطورةً، اختلقَها خيالُ الشُّعَراء المتصوِّفة، مثل طاغور، أو الخيالُ الخرافيُّ كما لدى الكاتب المجهول لحكاية «جبل الماس» في رحلة السِّندباد البحريِّ الثانية. لكنَّه يعرفُ أيضاً أنَّه قد يكون عُشْباً، كما في حكاية «حسن الصائغ البصريِّ»، حيث اختطفَهُ الساحرُ المجوسيُّ بهرامُ لتصعدَ به طيورُ الرَّخم، ويرميَهُ له من أعلى الجبل. ومهما يكن الأمر، فلم يتعبْ حسن من محاولةِ العثورِ على حجر الفلاسفة. كان يلتقطُ الحجرَ، ويمرِّرُهُ على حزامِهِ الحديد، ثمَّ يُلقي به بعيداً. وظلَّ على هذه الحال مدَّةً طويلةً.

ذاتَ يومٍ، تطلَّعَ حسن إلى إحدى القرى، وبقيَ يتفرَّجُ عليها من بعدٍ. كانت لحيتُهُ قد طالتْ، وأظفارُهُ قد تحوَّلت إلى مخالبَ، وعيناهُ قد غارتا من فرطِ التَّعب والتَّوحُّش والوحدة. وما كادَ يدخلُ القريةَ، حتّى وجدَ مجموعةً من الصِّبية يلعبونَ. فجأةً انفردَ أحدُهم، واقتربَ من حسن البهلول وسألَهُ: قُلْ أيُّها الدَّرويشُ، من أينَ حصلتَ على هذا الحزامِ الذَّهبيِّ الجميل؟

بقيَ حسن مدهوشاً، باهتاً، لا يعرفُ إلى مَن ينظرُ، إلى حزامِهِ الحديد الذي تحوَّلَ إلى ذهبٍ، أم إلى الصَّبيِّ أمامَهُ. لقد حصلَ على حجر الفلاسفة، ثمَّ أضاعَهُ. لا يعرفُ أحدٌ كم بقيَ حسن البهلول في وقفتِهِ تلكَ. هل يفكِّر بالعودةِ إلى الطَّريق الذي جاءَ منه، وتقليبِ الأحجارِ التي رماها من قبلُ؟ وكيف يعرفُ أنَّ حجرَ الفلاسفةِ كان حجراً؟ لعلَّه كانَ عُشْباً نامَ عليه، لعلَّهُ كانَ فكرةً خطرَتْ في بالِهِ، لعلَّهُ كانَ شخصاً يحبُّهُ وفكَّرَ فيه، وبتفكيرِهِ به تتحوَّلُ المعادنُ الرَّخيصة التي يُمسِكُها إلى ذهبٍ. أنصتَ حسن إلى الجانبِ المضيءِ في ذاتِهِ، ذلك الجانب الذي بقيَ يتحاشاه، بينما كان يريدُ هو لحسنٍ أن يصحوَ ويتعلَّمَ منه. كانَ دائماً خائفاً من الجانب المظلم، لكنَّهُ لم يطمئنَّ أبداً إلىَ الجانبِ المضيءِ في ذاته. ولعلَّ حجرَ الفلاسفةِ لم يكنْ سوى فكرةٍ مرقَتْ في خاطرِهِ من ذلك الجانبِ المضيءِ.

ذكريات مزرعة الحَيَوانات

نحن الحَيَوانات الوديعة التي أفلتتْ من «مزرعة الحَيَوانات» القديمة التي كتبَها أورويل نتذكَّرُ تماماً كيف حصلت الأشياء. نتذكَّرُ القاعةَ التي اجتمعتْ فيها الحيوانات، واللافتةَ التي كُتِبَ في أعلاها «العدلُ أساسُ المُلْكِ». في ذلك الوقت صيغتِ المادَّة الأولى من الدُّستور بيُسْرٍ: «جميع الحيوانات متساوية». ثمَّ صيغتِ المادَّة الثانية بعنايةٍ «لكنَّ هناك حَيَواناتٍ أكثرَ مساواةً». وشيئاً فشيئاً بدأت المزرعة تضيقُ، والهواء يشحُّ، والسَّماءُ تتكاثف. فصارت الحيوانات التي لا براثن لها ولا حناجرَ تتسلَّلُ من أسوار المزرعة العالية، وتبحثُ لها عن فضاءٍ تعيش فيه بأوكسجينَ أقلَّ تلوُّثاً.

حين وصل اختناق الحياة في المزرعة إلى درجةٍ لا تُطاقُ، جاءتِ التِّنِّينات الكواسر من غابات الظَّلام المحيطة بالمزرعة، وقرَّرت إحداثَ انقلابٍ فيها، وجلبتْ معها عدداً كبيراً من الحيوانات لافتراس الحيوانات السابقة والقضاء عليها. وحين استولت الحيوانات الوافدة على المزرعة اجتَمَعَتْ في القاعة

نفسها، وتحت اللافتة بعينها: «العدلُ أساسُ المُلْكِ». بدأ كبير الحيوانات بالقول: لسنا كالحيوانات السابقة، نحن حيوانات «طاهرة» نقيَّة، كلابُنا من نسل «كلب أهل الكهف»، وحميرُنا من نسل حمار العُزَير، وشياهُنا من نسل شاة «أُمِّ معبد»، ونياقُنا من نسل «ناقة اللّٰه». لذلك يجب أن نتوصَّلَ إلى ميثاقٍ جديدٍ للحفاظ على عدالتنا الإلهيَّة. حينئذٍ اتَّفقتِ الحيوانات على المادَّة الأولى من الدُّستور الجديد: «جميعُ الحَيَوانات مُتَساوية». وقبل صياغة المادَّة الثانية، تساءلَ أحدُ الحيوانات: هل يتساوى مَن ينهشُ بأنيابِهِ وبراثنِهِ معَ مَن لا أنيابَ له ولا براثنَ؟ فصيغَتِ المادَّة الثانية بحذرٍ شديدٍ: «لكنَّ هناك حَيَواناتٍ أكثرَ مساواةً بكثيرٍ». تصدَّى حيوان يجلس في أقصى القاعة وقال: للخراف حقُّ الثُّغاء، وللكلاب حقُّ النُّباح، وللضِّباع حقُّ النَّهش، وللنُّمور حقُّ الفتك، لكنْ ماذا يحقُّ للحيوانات التي لا أنيابَ لها ولا براثنَ ولا حناجرَ؟ نظرَ له الجميع باستياء، وانبرى له أحدُها: وهل تعترض لأنَّ اللّٰه جعلَها أقلَّ الحيواناتِ مساواةً؟

في المزرعة، تناقَصَ الهواءُ من جديد، وسادتِ الظُّلمة، وتقلَّصَتِ المساحة، ولا يعرف أحدٌ مَن كتبَ على بوّابة المزرعة: لعنة اللّٰه على مزرعةِ حيواناتٍ يكونُ فيها التَّساوي تفاوتاً.

عدالة «سجن الأحلام»

في جمهوريَّةِ «نبتونَ»، ومنذُ تنادى العسكرُ من أجلِ استتبابِ الأمنِ، وإطلاقِ الحرِّيّاتِ، جَرَتْ في أرضِ الجمهوريَّةِ أشياءُ بلا حَصْرٍ. فلقد رُفِعَتْ صُوَرُ الحكّامِ الأجلافِ الماضينَ، وحلَّتْ في موضعِها صُوَرُ الحكّامِ الجُدُدِ الأفذاذِ الأُخرى، لكنْ بمقاييسٍ أكبرَ بالطَّبعِ. فليسَ من المعقولِ مساواةُ الأجلافِ بمَن جاءوا بعدَهُمُ، وأطاحوا بالعدلِ الماضي من أجلِ العدلِ الحاضرْ.

ولقد حرصَ الحكّامُ الجددُ الأفذاذُ، ومنذُ تولِّيهمْ سلطةَ «نبتونَ»، على بسطِ الأمنِ، وتحويلِ قوانينِ الظُّلمِ إلى أُنشودةِ عدلٍ تتغنَّى فيها رُكبانُ الكوكبِ. إذْ أَلْغَوا كلَّ النُّظُمِ المعمولِ بها من قبلُ، وجاءوا بالدُّستورِ الأليَقِ في الكوكبِ، بل كتبوهُ بألواحِ المرمرِ والألوانِ المُثْلَى، ليكونَ التَّطبيقُ له أجملَ ما يمكنُ حقّاً. وقد اتَّفقَ المدعوُّونَ جميعاً أنَّ الدُّستورَ مثاليٌّ في طبعتِهِ الأولى، ويحقُّ لمن حضروا في حفلِ التَّوقيعِ له أن يتَّخذوهُ شعارَ مَفاخرْ.

لكنَّ الحدثَ الأبرزَ في العهدِ الحاضرِ أنَّ السِّجنَ السابقَ قد حُوِّلَ أنقاضاً رَفَعَتْها الجرّاراتُ، وتمَّ الإيعازُ بتحويلِ السِّجنِ إلى أجملِ «بارك»، يتلاقى فيه العشّاقُ المحرومونَ. وحتّى لا تبقى الجمهوريَّةُ فارغةً من إيحاءِ رموزِ العدلِ، فقد صدرَ الأمرُ بتحويلِ قِلاعِ «الفردوسِ المفقودِ» إلى سجنٍ، يُحرَصُ بالتَّأكيد على تطبيقِ العدلِ به، ومراعاةِ فضائلِ قانونِ الأخلاقِ، وفوقَ الكلِّ على أن يُدعَى «سجن الأحلام»، لأنَّ الهدفَ الأسمى منه بأن يفهمَ أعتى المسجونينَ، وهُمْ في الواقعِ أثقفُ مَن في الكوكبِ بل نخبتُهُ الفُضلى، أنَّ الظُّلمَ من المؤمنِ أحلى من عدلِ الكافرْ.

ولكي نُنصِفَ مشروعَ السَّجّانينَ، فهمْ في الواقعِ كانوا مسجونينَ طوالَ العهدِ السابقِ، لكنَّهُمُ كسروا أبوابَ السِّجنِ وفرُّوا. وأُتيحَ لهم أن ينتقموا من سجّانيهمْ في هدْمِ السِّجنِ، وتجديدِ طقوسِ التَّعذيبِ، وإيداعِ المسجونينَ بسجنِ الأحلامِ. ومعروفٌ أنَّ المسجونينَ الآن هُمُ السَّجّانونَ من العهدِ السابقِ، إلّا بعضَ النَّكِراتِ، ولكنَّ يدَ الرَّحمةِ قد طالَتْهُمْ هذي المرَّةَ. إذ لم يُرْمَوا في «قبوِ القلعةِ»، بل في «سجنِ الأحلامِ» الفاخرْ.

وللتَّاريخِ، فإنَّ تبادلَ أدوارٍ بينَ المسجونينَ وبينَ السَّجّانينَ يشكِّلُ كُنْهَ حضارةِ «نبتونَ». فتاريخُ الجمهوريَّةِ في أكملِهِ يكمنُ

في موجاتٍ تتعاقبُ من هدمٍ وبناءٍ، وصعودٍ وهبوطٍ، وشبابٍ وخمولٍ، في نقضِ قلاعٍ وبناءِ سجونٍ. وهنا، في هذي النُّقطةِ، يمكنُنا القولُ بأنَّ تلاطمَ أمواجِ الكوكبِ تدفعُ بعضَ الناسِ إلى أسوارِ السِّجنِ، وتُخرِجُ بعضاً منهم، لتُجدِّدَ، في حالةِ تغييرِ الأزمانِ، دماءَ التاريخِ، وتجعَلَ من سُكْنَى الكوكبِ أمراً مقبولاً، يهدمُ فيه العصرُ المبعوثُ مراسيمَ العصرِ الغابرْ.

نصر في حديقة التّماثيل

حينَ أفاقَ بأرضِ الحديقةِ، لم يتخيَّلْ رخامَ التَّماثيلِ وَهْيَ تحيطُ به في جميعِ ممرّاتِها والزَّوايا، تماثيلُ من حَجَرٍ ونحاسٍ، نساءٌ عراياً بأجسادِهنَّ الجميلةِ، يَفْتَحْنَ أذرعَهُنَّ، ويكشفنَ عمّا يبوحُ به الفنُّ في حَرَمِ الصَّمتِ، أو نشوةِ الانذهالِ بفنِّ الأُنوثةِ. صمتُ الرُّخامِ الذي يتكلَّمُ حتّى تنوءَ بأثقالِهِ الكلماتُ. هنالكَ أيضاً تماثيلُ لا تنتهي لرجالٍ عُراةٍ تفيضُ الفحولةُ مِن حولِهم. تساءَلَ في نفسِهِ: مَن أقامَ صُروحَ التَّماثيلِ؟ مَن شادَ أسرارَها هاهنا؟ لم يجِدْ للسُّؤالِ جَواباً، ولكنَّه بفضولِ الغريبِ، تجوَّلَ في كلِّ زاويةٍ مِن زوايا الحديقةِ، منتظراً أن يُحيطَ بها، أو يرى ما لها مِن حدودٍ، ولكنْ تراءى له أنَّه لن يُطيق، لأنَّ الحديقةَ كانَتْ أشدَّ امتداداً وأوسعَ من أن يحيطَ بها وعيُهُ المستَفَزُّ. فكفَّ عن البحثِ مُستسلماً لفتونِ الرُّخامْ.

وبعدَ استعادةِ هدأتِهِ والخروجِ من الانذهالِ، تساءَلَ كيفَ سيُمضي المساءَ. وقرَّرَ في نفسِهِ أن يُقضِّي النَّهارَ بأحضانِ نسوتِهِ

الفاتناتِ، يُعانِقُ طيبَ مفاتِنِهُنَّ، وملمسَ أحضانِهُنَّ، وروعَةَ أجسادِهُنَّ. كأنَّ التَّماثيلَ ليستْ رخاماً، ولكنَّها هيَ لحمٌ لها ودمٌ نابضٌ بالحياةِ. كذلكَ فكَّرَ ماذا سيفعلُ بعد قضاءِ اللَّيالي بأحلامِ لذَّتِهِ. في البدايةِ فكَّرَ أن يتخلَّصَ من ثُقَلاءِ الرِّجالِ جَميعاً. ولكنَّه وجدَ الأمرَ صَعْباً عليهِ. وفي ضوءِ إحساسِ غيرتِهِ ذاكَ، قرَّرَ تجريدَهُمْ من فحولتِهِمْ. فهشَّمَ فيهم ذكورتَهُمْ، وجمَّعَها في مكانٍ بعيدٍ، أرادَ له أن يكونَ بمنأىً عن النِّسوَةِ الفاتناتِ، وصيَّرَهُ في الحديقةِ مستودَعاً للرُّكامْ.

هكذا صارَ في مستطاعِ فحولتِهِ أن تتفتَّحَ في حالتَينِ؛ حينَ يُقضِّي لياليهِ مُستمتعاً بفتونِ تماثيلِ نسوتِهِ العارياتِ، ويشعرُ بالغبطةِ المشتهاةِ نتيجةَ تجريدِهِ للرِّجالِ الفحولِ بِنَزْعِ فحولتِهِمْ. كانَ يشعرُ بالزَّهْوِ في نفسِهِ مُطمئِنّاً إلى أنَّه لا نظيرَ له في جميعِ التَّماثيل، حيّاً وفرداً وفحلاً، بكلِّ المعاني التي غَمَرَتْهُ. وفي ذاتِ يومٍ، تراءى له أن يُشيِّدَ تمثالَ نصرٍ له فوقَها كلِّها، ويزيدُ عليها. وإذ ليسَ يرغبُ في فَقْدِ نسوتِهِ الغالياتِ، كما لا يريدُ التَّخلُّصَ من نشوةِ الانتصارِ بإذلالِ كلِّ الذُّكورِ، رأى أن يحاولَ صَهْرَ ركامِ الفحولةِ، ثمَّ يُشيِّدَهُ من جديدٍ، ليُصبِحَ تمثالَهُ الشامخَ الفذَّ بينَ العظامْ.

وأخيراً، تمكَّنَ من جعلِ كلِّ النِّساءِ سبايا، وكلِّ الرِّجالِ عبيداً. ولكنَّه خانَهُ الانتباهُ إلى أنَّهمْ كلَّهمْ لم يكونوا سوى حَجَرٍ ونحاسٍ، وأنَّ ارتفاعَ بطولتِهِ فوقَهمْ لم يكنْ غيرَ نصرٍ ذليلٍ، لأنَّ فحولتَهُ صنعتْها فحولاتُ جيشٍ من القِطَعِ المعدنيَّةِ والحجريَّةِ. مِن هاهنا انقلَبَ الزَّهْوُ في نفسِهِ أوَّلَ الأمرِ نقصاً، وصارَ يعيبُ على نفسِهِ أنَّه خاضَ كلَّ الحروبِ التي خاضَها ضدَّ لا شيءَ، بل شادَ فوقَ التَّماثيلِ تمثالَهُ ليؤكِّدَ فيه انتصارَ فحولتِهِ فوقَ تلِّ الحُطامْ.

المعجزة السِّرِّيَّة

﴿ فَأَماتَهُ اللَّهُ مائةَ عامٍ ثمَّ بعثَهُ قالَ كم لبِثْتَ قالَ لبِثْتُ يَوماً أو بعضَ يومٍ ﴾ [البقرة: 259]

في باحَةِ السِّجنِ الكبيرِ، تهيَّأَ الحرّاسُ منذ الفجرِ، وانصَرَفوا إلى تزيينِ مَلْبسِهِمْ، وتجهيزِ البنادقِ بالرَّصاصِ مع اقترابِ الوقتِ للتَّنفيذِ. كانوا واثقينَ بأنَّهم سينفِّذونَ مهمَّةَ الإعدامِ باليُسْرِ الذي اعتادوا عليهِ، فأطلقوا بعضَ النُّكاتِ لبعضِهم. وَمَضوا إلى الزَّنزانةِ الكبرى ليقتادوهُ يحجلُ بالسَّلاسلِ. كانَ يمشي مثلَما اعتادَ التَّنقُّلَ قبلَ هذا الوقتِ، لكنَّ السَّلاسلَ أثقلَتْ خُطواتِهِ في السَّيرِ. فانتظروا ولم يستعجلوا. فأمامَهمْ وقتٌ على التَّنفيذِ. جازوا مكتبَ القاعاتِ والحَرَسَ الذين تناوَبوا لحمايةِ المبنى. وظلُّوا هادئينَ بسيرِهِمْ حتّى الوصولِ لموقعِ التَّنفيذِ عندَ الباحةِ الكبرى.

هناكَ، تخفَّفَ الحرّاسُ بعضَ الشَّيءِ. ما زالَ الصَّباحُ مبكِّراً،

والوقتُ متَّسعاً قليلاً في انتظارِ مهمَّةِ التَّنفيذِ. فكُّوا قيدَهُ، وَرَمَوا سلاسِلَهُ على جنْبٍ. وفكَّرَ واحدٌ منهمْ بإعطاءِ «السَّجينِ» سِكارةً، لو جازَ أن يُدعى «سجيناً» مَن يُساقُ لحتفِهِ في ساحةِ الإعدامِ. دخَّنَها «السَّجينُ»، ولم يقُلْ شيئاً. وقبلَ بلوغِ آخرِها، رماها قُرْبَهُ. ورأى خيوطَ دخانِها تعلو وتصعدُ. ثمَّ حينَ دنا تمامُ الوقتِ قامَ، وأوقفوه إلى الجدارِ. تجمَّعوا من حولِهِ قوساً، سلاحُهُمُ المهَيَّأُ بانتظارِ إشارةِ الإطلاقِ. أعلنَ ضابطُ التَّنفيذِ بدءَ الرَّمْيِ، فانهمَرَ الرَّصاصُ على «السَّجينِ»، وخرَّ فوقَ الأرضِ مذبوحاً، وكانَ دخانُهُ ما زالَ يصعدُ، والدِّماءُ تسيلُ فوقَ الأرضِ من فتحاتِهِ.

في باحةِ السِّجنِ الكبيرِ، وفي زمانٍ آخرٍ أو عالمٍ من طينةٍ أُخرى، هناكَ روايةٌ أُخرى لمعدومٍ تجمَّعَ حولَهُ حرّاسُهُ، لكنَّه قبلَ اقتيادِهِمُ له في السِّجنِ، نادى اللّٰهَ في أحلامِهِ، ودعاهُ أن يحيا ثلاثَ سنينَ أُخرى، فاستجابَ له الإلهُ. وكانَ يعرفُ أنَّه سيعيشُها. فمَضَى معَ الحرّاسِ حتّى ساحةِ التَّنفيذِ. فكُّوا قيدَهُ، ورَمَوا سلاسلَهُ على جنبٍ. وفكَّرَ واحدٌ منهمْ بأن يُعطي له سيكارةً في ساحةِ الإعدامِ. دخَّنَها وظلَّ يُراقِبُ الحرّاسَ، ينظرُ تارةً لهمُ، وحيناً باتِّجاهِ دخانِهِ يعلو. ولمّا أوقفوهُ إلى الجدارِ، تجمَّعوا قوساً، سلاحُهُمُ المهيَّأُ بانتظارِ إشارةِ الإطلاقِ. أعلنَ ضابطُ التَّنفيذِ بدءَ الرَّمي. يا للهولِ، لم يَقَعِ «السَّجينُ»، ولم يمُتْ. وتجمَّدَ الحرّاسُ في زَمَنٍ

تخثَّرَ فوقَهمْ. ذهبَ السَّجينُ. قَضَى ثلاثَ سنينَ حرّاً مثلَما وعدَ الإلهُ. وبعدَ أن مرَّتْ تماماً وانقضَتْ، وجدَ السَّجينُ بأنَّه ما زالَ في السِّجنِ الكبيرِ، وخلفَهُ الحيطانُ، والحرّاسُ مجتمعونَ قوساً بانتظارِ إشارةِ الإطلاقِ.

صباح والجواهريّ

لم أرَ «صباح» سوى مرَّتينِ أو ثلاثٍ. لكنَّه لم يكنْ من النَّوع الذي يُنسى بسهولة. في أواخر السَّبعينات كان طالباً لم يُكملِ الدِّراسة الثانويَّة، ويكتب الشِّعرَ على طريقة الجواهريِّ كتابةً متقنةً. غير أنَّ المشكلة الكبرى التي يُعاني منها صباح هي نضوبُ الموضوعات لديه. كانَ مقتنعاً تماماً بخلوِّ العالمِ من موضوعٍ يستحقُّ الكتابة عنه. عَبَثاً حاولتُ إفهامه أنَّ الأشياءَ ليسَتْ جميلةً في ذاتها، بل إنَّ نظرتَنا لها هي التي تجعلُ منها جميلةً. تلك النَّجمة، هذا الحجر، عباءة تلك المرأة، صيحة هذا الطِّفل. لكنَّه لم يقبلْ أبداً. كانت لديه قناعةٌ لا تتزحزحُ بأنَّ العالم يخلو من الموضوعات التي تستحقُّ أن يكتبَ عنها شعراً. وأخيراً عثر صباح على ضالَّتِهِ، ووجد موضوعاً. قريباً سيموتُ الجواهريُّ العظيم، وسيرثيه صباح بقصيدةٍ تظلُّ علامةً على جيلٍ بأكمله.

في المرَّة الثانية التي التقينا فيها معاً، قرأتُ له بيتاً نثريّاً: «السَّمواتُ مستشفى». قال: سبقتُك إلى هذا المعنى فقلتُ: «إنَّ

الحياةَ لَمُسْتشفىً نعيشُ به». قلتُ له: شتّانَ بين القولينِ. على مستوى البناءِ، لا يمكنُ اختصارُ البيت الأوَّل أبداً، فهو كلمتانِ فقط. أمّا في بيتك فـ«إنَّ» زائدة للتَّوكيد، واللام زائدة للتَّوكيد، و«نعيش به» حشوٌ لتصوير الحياة، وكلُّ هذه زوائدُ لا ضرورةَ لها. على مستوى الدَّلالة، ما المستشفى؟ إنَّه مرحلةٌ وسطى بين الحياة والموت، برزخٌ لا يخرج منه المرء إلّا إلى أحدهما. والسَّموات في البيت الأوَّل هي ذلك المكان البعيد الذي يستقرُّ فيه الموت، ولذلك أنا أريدُ أن أهبطَ إلى الحياة هَرَباً من الموتِ الذي في السَّموات. أمّا أنت فتريد أن تخرجَ من الحياةِ، لعلَّكَ تعثرُ في الموت على معنىً لها. ولم أكنْ أعرف أنَّ كلامي هذا ستكون له دقَّة متناهية.

ترك صباح الدِّراسة الثانويَّة، فسيقَ إلى جَبَهات القتال في الحرب بين العراق وإيران. في الشُّهور السِّتَّة الأولى كانت مشكلة صباح لا تكمنُ في القصف الذي ينهمرُ فوق رأسه مدراراً، بل في خلوِّ العالمِ من المعنى. وأنا أعرفُ أُناساً كثيرين من هذا النَّوع، كانوا يتوقَّعون نهايتَهم، يشعرون أنَّ موتَهم يأتيهم من الداخلِ، لا من الخارجِ، يزحفُ إلى أرواحِهم من القَدَمينِ. أتخيَّل صباح في تلك اللَّيلة الكئيبة، وقد ضجرَ من خلوِّ العالم من المعنى، فأرادَ أن يرثيَ الجواهريَّ وهو حيٌّ، لكنَّه استهجنَ الفكرة، استهجن

أن يصطنعَ الموتَ اصطناعاً. لماذا يخلو العالم من المعنى؟ قرَّرَ صباح أن يخرجَ من الموضع، لعلَّه يعثرُ على معنىً في قذيفةٍ ما تأتي من الاتِّجاه المضادِّ. أصدقاؤنا الذين ماتوا على هذا النَّحو كانوا يستحضرونَ موتهم، ينادونَهُ فيُلبِّيهم، والموتُ يُلبِّي النِّداء بسرعة. سقطتِ القذيفةُ على صباح، ولم تتركْ له فرصة العثور على معنىً، ولا التَّفكير بقصيدةٍ في رثاء الجواهريِّ. والمفارقة أنَّ الجواهريَّ نفسه لم يمتْ إلّا بعد ربعِ قرنٍ من موت صباح، ولم يسمَعْ يوماً ما باسمِهِ. صباحُ يا صديقي، ماذا لو أنَّكَ عثرتَ على معنىً ما في تلك اللَّيلة المشؤومة؟ ماذا لو أنَّكَ أصررتَ على رثاء الجواهريِّ، وأجَّلتَ موتَكَ إلى ما بعد موتِهِ؟ ماذا لو عاندتَهُ كما عاندَكَ، فعشتَ بعدَهُ ربعَ قرنٍ أيضاً؟ بالتَّأكيد كنتَ ستكونُ الآنَ في السِّتِّين من العمر.

انعدام الحبِّ المثاليِّ مئةً بالمئة

روى لها أُقصوصةً قرأها للرِّوائيِّ اليابانيِّ موراكامي عن الحبِّ المثاليِّ الكامل مئةً بالمئة. وهي أُقصوصةٌ صغيرةٌ لا يزيد حجمُها عن أُقصوصتنا هذه. فكَّرَ شابانِ، فتىً وفتاةٌ، في وقتٍ واحدٍ عفوَ الخاطرِ، بأنَّ كلّاً منهما هو الحبُّ المثاليُّ مئةً بالمئة للآخر. ولمّا كان كلٌّ منهما مقتنعاً بأنَّه وجد نصفه المثاليَّ الآخر الذي لن يعثر عليه مرَّةً أخرى، فقد اتّفقا، كلّاً في ناحيته، على الالتقاء. وفعلاً نجحَ لقاؤُهما، ووقفَ كلٌّ منهما أمامَ الآخرِ على ثقةٍ مطلقةٍ بأنَّه عثرَ على تصوُّره عن الحبِّ المثاليِّ مئةً بالمئة. ابتسما لبعضٍ، وفَرِحا بهذا الحبِّ، ولكي يتأكَّدا من أنَّه فعلاً حبٌّ، قرّرا أن يختبراه، ويفترقا لمدَّة عشرِ سنواتٍ يلتقيانِ بعدها في المكان نفسه.

بعد عشر سنواتٍ، التقيا في هذا المكانِ، وقبل أن يصلا إلى بعضِهما، كانَ كلٌّ منهما مطمئنّاً كالسابق في الوصولِ إلى حلمِهِ المستحيلِ. وعندَ لقائِهما، وقفا أمام بعضهما، لكنَّ أيّاً منهما لم

يستطعِ التَّعرُّفَ على الآخر، فقد حفرَ تعاقبُ السِّنين ملامحَهُ عليه. نظرَ كلٌّ منهما في وجهِ الآخرِ، لكنَّه لم يستطعْ استرجاعَ صورتِهِ الأولى. وهكذا مضى الاثنانِ كلٌّ منهما في طريقِهِ، شاعراً بالأسف لأنَّه أضاعَ حبَّه المثاليَّ مئةً بالمئة قبل عشرِ سنواتٍ في هذا المكان نفسه.

بطلا أُقصوصتِنا هذه يعرفانِ أنَّ أُقصوصة موراكامي هي مجرَّد أُقصوصة، أي مجرَّد خيالٍ ووهمٍ، ولن يسمحا لنفسيهما بأن يقعا فيه. ولذلك اتّفقا على تجربةٍ من نوعٍ آخرَ، يمكن القول إنَّها النَّقيض لتجربة بطلي أُقصوصة موراكامي. فقد اتّفقا على أنَّ من حقِّ أيٍّ منهما أن يفكِّرَ بالآخر، ويتَّصِلَ به ليلاً أو نهاراً، أن يفعلَ أيَّ شيء من أجله، أن يدخل في أحلامه، بل أن يغيِّرَ هذه الأحلام، ويُعيد ترتيبها حسب رغباته. ولكنْ بشرط أن لا تُسمَّى العلاقة بينهما «حبّاً». فهي علاقةٌ وحسبُ، علاقة أقلُّ من الحبِّ بكثيرٍ في التزاماتها، وأكثر من الحبِّ بكثيرٍ في مشاعرها. ولهذا فقد اتّفقا على أن لا يصلا مطلقاً إلى «حديقة العشّاق» المحاذية للجسرِ، مهما كلَّفَ الثَّمن. وإذا حدثَ أن وصلاها أو اقتربا منها فعليهما إنهاءُ علاقتِهما على الفور.

حافظا على اتِّفاقهما ثلاثَ سنواتٍ، لكنَّهما مع ذلك اقتربا من

حديقةِ العشّاقِ ثلاثَ مرّاتٍ أيضاً. في المرَّة الأولى قرَّرا فصمَ علاقتهما نهائيّاً، ولكنَّهما عادا صديقين بعد انقضاء الشَّهر. وتكرَّرَ الأمر في المرَّة الثانية. أمّا الآن، فقد مرَّ تسعةٌ وعشرونَ يوماً على قرارهما في فصم علاقتهما، وما زالا لا يعرفانِ هل سيلتقيانِ في اليوم الثَّلاثين، أم سيستمرّانِ في انفصالهما النِّهائيِّ، كما انفصلَ قبلَهما عاشقا أُقصوصة موراكامي، شاعرين بالأسفِ على انعدامِ حبِّهما المثاليِّ مئةً بالمئة.

المقامة الثّلاثون

لستُ بالغرِّ، لكنَّها خدعتْني مراراً؛ تزوِّرُ شخصيَّةً، ثمَّ تأتي بأُخرى. ومن كثرةِ الانخداع بها صارَ لي عادةً أن أتوقَّعَ تزويرَها، وَأُخمِّنَ في الحالِ فَرْطَ انخداعي بها. من هنا يمكنُ القولُ إنَّ حكايتَنا أصبحَتْ مثلَما في «المقاماتِ» من بنيةِ الانبهارِ بشخصيَّةٍ، ثمَّ يأتي التَّعرُّفُ، حين يُفاجأُ أبطالُها بالغريمِ الذي يتنكَّرُ من أجلِ تمريرِ شيءٍ عَلَيهم:

يــا ســائــقَ الأظــعــانْ	خُــذْنــا إلــى الــمــاضــي
لا تــجــعَــلِ الــنِّــسـيــانْ	ســيــفَ الــغــدِ الــقــاضــي

خدعتْنيَ حينَ ادَّعتْ أنَّ رابطةَ الانتماءِ إلى المستحيلِ رمَتْنا معاً، فهيَ «أوفيليا» في القرونِ التي سبقَتْ، وأنا العاشقُ المتمرِّدُ، مَن ماتَ يبحثُ عن قبرِها فوقَ أسوارِ ملحمةٍ لم يُطِقْ هولَها، فتجرَّعَ من أجلِها السّمَّ، لكنَّه لم يمتْ، حيثُ في اللَّحَظاتِ الأخيرةِ أدركَهُ حبُّها، فتسامى به، واستحالَ إلى عاشقٍ لا يموتُ. وفي السِّرِّ، في لحظةِ الانتشاءِ، استفاقَ، فلم يلقَ من حولِهِ أَحَداً.

أينَ «أوفيليا»؟ أينَ قبرُ الحبيبةِ؟ لا شيءَ إلّا الغريمُ الذي يتملَّصُ من غدرِهِ ضاحكاً، أينَ أنتَ؟ هنا، أتحسَّسُ أشلاءَ روحي لكي لا تغور:

الـحـزنُ كـالـمـشـعَـلْ	يَـنْـسـابُ فـي زورقْ
يـا نـهـرُ لا تـجـعَـلْ	«أوفـيـلـيـا» تَـغْـرَقْ

وفي مرَّةٍ خدعَتْني بأنِّيَ «قيسُ» الجنونِ، ولكنَّها، للأمانةِ، لم تتشبَّثْ بأسمالِ «ليلى». لأنَّ الذي حاولَتْهُ ضياعيَ بالذاتِ، لا أن تضيعَ. لذلكَ ظلَّتْ تصرُّ على أنَّني ينبغي أن أعودَ إلى عصرِ قيسٍ، وأن أتنفَّسَ بينَ الخيامِ شميمَ العرارِ بنجدٍ. وأعرفُ أنِّي انخدَعْتُ، وأسلمتُ روحيَ للرِّيحِ، فارتحلتْ بيْ بعيداً، إلى حيثُ كانَ الهواءُ نقيّاً تماماً وخلواً من الذِّكرياتِ. وبينَ الخيامِ، تحسَّستُ أعضاءَ روحيَ. أينَ أنا؟ مَن رَماني هنا؟ لستُ أدري. ولكنَّها مرقَتْ مِن أماميَ طيفاً تبسَّمَ يكتمُ ضحكتَهُ وغرورَ أساطيرِهِ:

فـي الـفـجـر إذ تـتـساقَطُ الـ	أحـزانُ، كـالأنـسـام، سَـهْـوا
وَيَـفـزُّ جَـرحٌ تَـشْـتـهـيـ	ـهِ رُؤى الـبـدائـيِّـينَ شَـدْوا
ويـنـوحُ قـلـبٌ يَـشْـتَـكـيـ	ـكَ ولستَ تسمعُ منهُ شَكْوى
كـيـفَ الـسُّـلـوُّ وأنـتَ تَـحْـ	ـسَبُ صرخةَ المذبوحِ سَلْوى

وفي مرَّةٍ حينَ كانَ القطارُ يسيرُ ببطءٍ، أَتَتْ بثيابِ فتاةٍ حداثيَّةِ اللَّمساتِ، تحملُ في يدِها كُتُباً، وتلبسُ نظّارتَينِ تشفّانِ عن عمقِ

نظرتِها. جلسَتْ في المكانِ المجاورِ لي، سألَتْني: ألم نلتقِ؟ قلتُ: لا. همسَتْ: ربَّما. ثمَّ وَهْيَ تحاولُ أن تنتقي الكلماتِ: أتأتي معي؟ قلتُ: أينَ؟ قالت: إلى داخلِ الحلمِ، بينَ الأساطيرِ والمستحيلِ. وعلى غرَّةٍ، فتحَتْ لي كتاباً. تَفَرّسْتُ في وجهِها، فعرفتُ ملامحَها. قلتُ: أوفيليا أنتِ أم طيفُ ليلى؟. فاختفَتْ فجأةً، وبقيتُ وحيداً. والقطارُ يسيرُ ببطءٍ بلا راكبينَ.

لقاء حُلُمين

حُلُمانِ يلتقيانِ في عَرَضِ الطَّريقِ، يُشاهدانِ وجومَ بعضِهما وحيرتَهُ، ولا يَتَطفَّلانِ، تُراهما التقَيا ببعضٍ ذاتَ صحوٍ، أم هيَ الأحلامُ قد ألقتْهما حُلُمينِ في عرض الطَّريق؟.. توقَّفا متردِّدينِ للحظةٍ. سألَ الملوَّنُ بالبنفسجِ صنوَهُ المعروقَ:

ـ هل نحنُ التقَينا قبلُ؟

ـ لا أدري، ولكنْ ربَّما كنّا التقَينا.

ـ هل أتيتَ من الشَّمالِ؟

ـ نَعَم، من الأقصى، وأنتَ؟

ـ من الجنوبِ، ولم أَطَأْ يوماً شمالَ الحلمِ.

ـ يبدو أنَّنا لم نلتقِ، ولعلَّ مَن حلُما بنا التقَيا بصحوٍ ذاتَ يومٍ.

ـ ربَّما.

سألَ الملوَّنُ بالبنفسجِ:

ـ أينَ تذهبُ؟

ـ كنتُ أبحثُ في ينابيعِ الشَّمالِ عن الجنوبِ. وأنتَ؟

ـ مَلَلْتُ مِن سَيري وَحيداً. هل ترافقُني؟

ـ أجلْ، بالطَّبع. لكنْ هل يحقُّ لنا التَّصرُّفُ دونَ إذنِ الحالِمَينِ؟

ـ الحالِمانِ هناك، كلٌّ منهما مُسْتغرقٌ في نومِهِ جهةَ الشَّمال أو الجنوبِ، ولن يذوقا ما نذوقُ إذا انفرَدْنا في مباهجِ حُلْمِنا.

ـ حَسَناً إذاً، فلنَمْضِ في حرِّيَّةِ الأحلامِ حتّى آخرِ العَبَقِ اللَّذيذِ، ولن يُحسَّ الحالمانِ بنا.

وترافقَ الحُلُمانِ، ظلّا سائرينِ إلى أن اختفتِ الطَّريقُ، ولم يعدْ في الحلْمِ من أَحَدٍ.

تململَ حالِمانِ، استيقظا من لذَّةِ الإغفاءِ في أقصى الشَّمال،

كما وفي أقصى الجنوبِ. هناكَ شيءٌ ما يدورُ، لعلَّها الأحلامُ قد ألقَتْهما بطريقٍ بعضٍ في مكانٍ ما. ولم يستيقظا، بل حاولا أن يَذْهَبا بمباهجِ الأحلامِ حتّى آخرِ العَبَقِ اللّذيذِ، كما اشتَهَى حُلْماهما بالضَّبط.

أوهام محطَّةِ القطار

في المحطَّةِ حينَ تراخى القطارُ الأخيرُ، ولم يَبْقَ مِن أَحَدٍ غير ظلَّينِ قد أَخَذا مَقْعَدَينِ قبالةَ بعضِهما، أَغْفَيا لحظةً، وأرادا لحُلْمَيهما الالتقاءَ، فلم يُفلِحا. جلسا بانتظارِ الظَّلامِ، عَسَى أن يَعودا إلى الحُلْمِ، أو يركنا للفراغِ اللَّذيذِ. ولكنَّ حُلْمَيهما استَعْصَيا، ثمَّ لم يقدرا أن يناما.

حاولا عَبَثاً أن يَقودَهما الحُلْمُ للالتقاءِ، ولم يَجْرُؤَا قطُّ أن يقطعا الفاصلَ الرَّخْوَ بَينَهُما، ولم يَكُ أكثرَ مِن خُطُواتٍ. أرادا لحُلْمَيهما الالتقاءَ، وقد فكَّرا باستحالةِ حُبٍّ يقومُ على فكرةِ المستحيلِ، لأنَّ مثاليَّةَ الحبِّ عندَهما أنَّه ناقصٌ. هكذا لم يُريدا خديعةَ بعضِهما بافتراضِ مثاليَّةٍ واضحٌ أنَّها لم تكنْ غيرَ حُلْمٍ يَزولُ.

المسافَةُ بَينَهما تتقلَّصُ فوقَ المحطَّةِ، لكنَّها تتضاعَفُ في الحُلْمِ. لم يَستطيعا التَّخلِّيَ عَن مبدأٍ في مثاليَّةِ الحبِّ حتّى انعدامِ الحدودِ، أرادا لها أن تكونَ مثاليَّةً مئةً بالمئةْ.

ومضتْ ساعتانِ، وأُخرى، وخمسٌ، ولم يُفلحا في استثارةِ حُلْمٍ يقولانِ إنَّهما اشتركا فيهِ، في صنعِهِ. كانَ يأتي ويذوي، ومِن قبلِ أن يُطبِقا فوقَهُ الجَفْنَ كانَ يفرُّ. المسافَةُ تمتدُّ، تصبحُ أبعَدَ، لا شيءَ. يبتدئُ الفجْرُ بالانبلاجِ. الظَّلامُ الذي حَرَصا أن يكونَ لهم آلةً لاصطيادِ مثاليَّةِ الحبِّ ها هو ذا يتبدَّدُ، يمضي. وهما جالسانِ على المقعدَينِ قبالةَ بعضِهما، عاجزَينِ عن الحُلْمِ، بل عاجزَينِ عن الافتراضِ بأنَّهما حاولا أن يَذوقا مثاليَّةَ الحبِّ، حين تكونُ مثاليَّةً مئةً بالمئةْ.

وَمِن بعدِ يأسٍ من الصَّحْوِ والحُلْمِ، يستشعرانِ مرارةَ أن يعجزا ليسَ عن نَيلِ حُلْمِهما حسْبُ، بل عن تبادلِ بعضِ الكلامِ عن الحبِّ أيضاً. يجيءُ قطارُ الصَّباحِ المبكِّرِ، يندفعُ الراكبونَ إليهِ. وخشيةَ أن يُعْلِنا عن مرارةِ ما حاولا، يصعدانِ إليه. القطارُ يسيرُ، وَقَد جَلَسا مثلَما فعلا سابقاً واحداً في قبالةِ آخرَ. لكنَّ ما فكَّرا فيهِ بعدَ مسيرِ القطارِ استحالةُ كونِهما عاشقَينِ لبعضِهما. فمثاليَّةُ الحبِّ تقتلُ في العاشقينَ الكلامَ.

صورةٌ على الغيوم

منْذُ أن مَنَعوا هنْدَ عن ردٍّ ريحِ الصَّبا حينَ تجتازُ أربُعَهم، قرَّرَ العاشقُ البدويُّ الرُّكونَ إلى الغيمِ، يرسمُها غيمةً غيمةً، ويُشكِّلُها كيفَما شاءَ، ثمَّ يبعثُها باتِّجاهِ الحبيبةِ.. تُلقي السَّلامَ عَلَيها، وتسألُ عن حالِها، ثمَّ تنقلُ أخبارَها نحوَهُ. ولَقَد يتوهَّمُ أنَّ الغيومَ تردُّ السَّلامَ، وتسألُهُ مثلَما سألَتْها، وتنقلُ أخبارَهُ نحوَها مثلَما فعلَتْ معَهُ. وظلَّ على هذه الحالِ وَقْتاً طويلاً، يُحدِّقُ نحوَ الغيومِ، ويرسمُها، ثمَّ يبعثُها، بعدَ أن تكتسي ما يريدُ.

وَقَد مرَّ وقتٌ عليهِ، ولم يكتشِفْ أهلُ هنْدَ طريقتَهُ في الوصولِ إليها. لذلكَ فكَّرَ في السَّيرِ أقصى من الاكتفاءِ بجعْلِ الغيومِ بريداً يُؤدِّي رسائلَهُ نحوَ هِنْدَ، ففكَّرَ في رسْمِ صورتِها في الغيوم، وإرسالِها نحوَها. أعجبَتْهُ محاولةُ الرَّسْمِ في الغيمِ. كانَ يُشكِّلُها قطعةً قطعةً. ها هنا أنفُها، ها هنا فمُها، ها هنا شَعْرُها المتناثرُ، حاجبُها، بسمةُ الشَّفَتينِ الشَّفيفةُ، وادي العيونِ الفسيحُ. أخيراً تمكَّنَ من رسْمِ صورتِها مثلَما شاءَ. صارَ يراها على الغيمِ، لكنَّه لم يشأْ أن تطيرَ الغيومُ على الفورِ نحْوَ الحبيبةِ، كانَ يريدُ التَّمتُّعَ فيما تحقَّقَ. أخَّرَها

عندَهُ ساعةً قبلَ إرسالِها. منعَ الطَّيرَ من أن تمرَّ فتحجبَ صورتَها عنْهُ، أو أن تُلامسَ أطرافَ ثوبِ الغيومِ. المساءُ أحاطَ بِهِ، وَهْوَ ما زالَ مُجتهداً في تأمُّلِ صورةِ محبوبةٍ رسمَتْها الغيومُ. فقرَّرَ تأجيلَ إطلاقِها في المساءِ إلى الصُّبحِ حتّى تراها الحبيبةُ.

حينَ أَطَلَّ الصَّباحُ عليهِ، وفتَّحَ عينيهِ كانَ التَّملّي بصورةِ هنْدَ اكتمالَ رغائبِهِ كلِّها. فَكَّرَ هل يستطيعُ التَّفَنُّنَ في رسمِها من جديدٍ، وتغييرِ بعْضِ ملامحِها، الخدُّ أكثرُ تكويرةً، والشِّفاهُ أشدُّ اكتِنازاً، وعينا الحبيبَةِ أوسَعُ ممّا توقَّعَ. صارَ لديهِ الكثيرُ من الشُّغلِ في رسمِها وإعادةِ تشكيلِها، فَأَخَّرَها اليومَ أيضاً إلى اللَّيلِ، مُنْتَظِراً أن يُكمِّلَها في غدٍ.

في الصَّباحِ الأخيرِ، تَمَلَّى بقَدْرِ استطاعتِهِ في ملامحِ صورةِ هنْدَ على صفحةِ الغيمِ، أدهشَهُ أنَّه ظلَّ منشغلاً كلَّ أوقاتِهِ بارتسامِ الحبيبَةِ. هل سَتُسَرُّ بها حينَ يُطلِقُها نحوَها؟ هل ستعرفُ كمْ هامَ في حبِّها؟ كيفَ لا يستطيعُ التَّأمُّلَ في الغيمِ من دونِها؟ تركَ الغيمَ مُبْتَعِداً بالتفاتتِهِ نحوَ باطنِهِ.. نحو داخلِهِ.. آهِ.. ماذا يُريدُ؟ لماذا يُصرُّ على رسمِها هكذا؟ شالَ عينيهِ نحوَ الغيومِ، تأمَّلَها. أيُّ هولٍ تحقَّقَ؟ لم تكُنْ قطُّ صورةَ هنْدَ الحبيبَةِ. بل ظلَّ يرسمُ صورتَهُ كلَّ هذي النَّهاراتِ مُنْشَغِلاً عن حبيبتِهِ بارتسامِ ملامحِ صورتِهِ نفسِها، صورتِهِ هوَ لا غيرِهِ.

الذاكرة والزَّمن

الذاكرة شيءٌ عجيبٌ، كأنَّما هي نافذة تطلُّ بنا على الزَّمن. كانت إذاعةُ المطار تُعلنُ عن النِّداء الأخير للرِّحلة 320 المتوجِّهة نحو كنعان. لكنَّني قرَّرتُ التَّريُّث في الصُّعود إلى الطائرة. بقيتُ في مكاني، كأنَّما كنتُ مشغولاً بالتَّحديق نحو هوَّة الزَّمن. عدتُ أربعين سنةً إلى الوراء. تذكَّرتُ كيف تمشَّينا أنا ونادية في ذلك اليومِ الرَّبيعيِّ النَّديِّ نحو الحقل الأخضر. حينَها حذَّرَتْني نادية من الدُّخول في الكنيسة الآراميَّة المهدَّمة. قالت: يزعمُ الناسُ هنا أنَّها إذا دخلَها عاشقانِ، وكانا مخلصين في حبِّهما، فسوف يختفيانِ عن الأنظارِ، ويغيبانِ إلى الأبد. هناك عشّاق يأتونَ إلى هنا لاختبار صدق محبَّتِهم. وحين لا يختفي العاشقانِ، يُدركانِ أنَّ أحدَهما كاذبٌ في مشاعرِهِ. ولكنْ حصل أن اختفى العاشقانِ معاً، لأنَّهما كانا صادقين.

قلتُ لها: عظيم، سوف ندخلُها إذاً، ليس لاختبار حبِّنا، ولكنْ لنحصلَ على الخلود فيها.

قالت نادية: ليس هناك من خلودٍ، هناك فقط ضياعٌ، وعليكَ أن تحذرَ. وأنا لكوني صادقةً جدّاً في حبِّي، لن أُغامرَ بدخولها أبداً.

قلتُ لها: أنا أيضاً صادق بحبِّي، وتأكَّدي أنّنا لن نضيعَ، بل سنجدُ أنفسَنا، سنتحوَّل إلى آلهة تتحكَّمُ بالزَّمن.

قالت نادية: لا أُريد أن أكونَ خالدةً، أنا إنسانةٌ بسيطةٌ، أريد أن أتزوَّجَ، وأُنجبَ أولاداً، أحوكُ لهم ملابسَ وأُخطئ فيها، فأُعيدُ حياكتَها. سوف أخيطُ لك بلوزاً عندما نتزوَّج.

عندما اقتربنا من الكنيسة الآراميَّة المفقودة، أوقفتْني نادية ومنعتْني من الدُّخول. قالت: نستطيع أن ندخلَ فيها كلّاً على حدة، ولكن لا مجتمعينِ. نظرتُ إلى الأسفل، لم يكنْ هناك سوى أحجارٍ مهدَّمة، ذكَّرتني بالكنيسة الفينيقيَّة في صبراتا. غير أنَّ هذه كانت حفرةً سحيقةً، ربَّما أرادتْها هيئة الآثار كذلك لمنع الزائرين من الدُّخول فيها.

أمسكتُ بكلتا يَدَي نادية، وتأمَّلتُها بعمقٍ. شعرتُ أنّني أخترق الزَّمن من خلال عينيها. كانتْ عينايَ تتوسَّلانِ بعينيها؛ رجاءً نادية، فلندخلْ في هوَّة الزَّمن. لكنَّ نادية لم تقبلْ. لم تقلْ شيئاً على الإطلاق. كانتْ عيناها تتكلَّمانِ بدلاً منها. قالت: اعذرْني

أنا امرأةٌ بسيطةٌ، لا أفكِّر بالخلود، أفكِّر بالحاجات البسيطة التي لا أستطيعُ تحقيقَها. ضغطتُ على يدي نادية بقوَّة، ورفعتُ عيني يائساً. فجأةً وقعتْ عيني على لوحةِ الإعلاناتِ في المطار، وهي تشير إلى أنَّ الرِّحلة 320 المتوجِّهة إلى كنعان قد غادرتْ قبل ربع ساعة. أحسستُ بخنجرٍ كبيرٍ ينغرز في روحي، وألمٍ مدمِّرٍ لا يُطاق ينفجرُ في أعماقي، ليس لأنَّ الطائرة أقلعتْ، بل لأنَّ نادية لم تقبلْ أن ندخلَ الكنيسة الآراميَّة المفقودة قبل أربعينَ سنة. كانت عينايَ في المطارِ الآنَ، ويدايَ تضغطانِ على يدي نادية قبل أربعينَ سنة.

انتصار الوهم

عزيزي أُستاذ سعيد؛

أنا نادية أحمد. أنتَ بالطَّبع لا تعرفُني، لأنَّنا لم نلتقِ، أقصدُ أنَّنا لم نلتقِ في العالم الواقعيِّ. لكنَّ الأقصوصة التي نشرتَها أمسِ أوجبتْ عليَّ أن أكتبَ لكَ. لقد تعرَّفتُ إلى أعمالك قبل عشرِ سنواتٍ. وأعترف بأنِّي لم أفكِّرْ بالاتِّصال بك مطلقاً، لأنَّ اتِّصالي بك حينئذٍ كانَ بلا معنى. والمسألة أنَّني حلمتُ حلماً قبل أربعين سنة، كنّا نتمشَّى فيه أنا وشخص اسمُهُ سعيد في أحد الحقول، وقد حذَّرتُهُ من السُّقوط في الكنيسة الآراميَّة المهدَّمة، لأنَّ دخول أيٍّ عاشقَينِ مخلصَينِ إليها يعني اختفاءَهما إلى الأبد. وعلى امتداد أربعين سنة، كنتُ أتصوَّرُ أنَّني وحدي حلمتُ هذا الحلم. ولم أتخيَّلْ أبداً أن تكون أنتَ قد حلمتَ الحلمَ نفسَهُ في الوقتِ نفسِهِ. سوف أبعث لكَ صورتي برفقة هذه الرِّسالة، وإذا كنتَ تتذكَّرُ ملامح الفتاة التي حلمتَ بها، فستتعرَّفُ عليَّ بالتَّأكيد.

لا يخفى عليكَ أنَّ للأحلامِ مفاجآتِها. وأنتَ نفسكَ كتبتَ عن «حكاية الحالمَين» في «ألف ليلة وليلة»، تلك الحكاية التي يدعو فيها الحلمُ شخصاً بغدادياً للذِّهاب إلى مصرَ للعثور على كنزٍ. وحين يصلُ إليها لا يجد مكاناً يأوي إليه سوى المسجد، وبالمصادفة تخترق المسجدَ عصابةٌ من اللُّصوص يطاردُها العَسَسُ اللَّيليُّ، ويقبضونَ على الحالم البغداديِّ. وحين يسألُهُ ضابطُ العسس عن سبب مجيئِهِ إلى مصرَ، يقول البغداديُّ إنَّه رأى حلماً يَعِدُهُ بكنزٍ في مصرَ، ويبدو أنَّ السِّياط التي نالَها هيَ الكنز. ضحكَ الضابط المصريُّ وقال: يا لكَ من غبيٍّ، لقد حلمتُ مثلَكَ مراراً بكنزٍ ينتظرُني في بغداد، في المحلَّة الفلانيَّة، في الشارع الفلانيِّ، في بيتِ فلانٍ، توجد سدرةٌ تحتها كنزٌ. لكنِّي لستُ غبيّاً مثلَكَ لأصدِّقَ الأحلامَ. عاد الحالم البغداديُّ إلى بغداد، فقد كانت المحلَّة التي سمّاها الحالم المصريُّ محلَّتَهُ، والشارعُ شارعَهُ، والبيتُ بيتَهُ، والاسمُ اسمَهُ، ومن تحت السِّدرة التي وصفَها الحالم المصريُّ استخرج الكنزَ الذي وعدَهُ به الحلمُ في بغداد.

نحن حالمانِ أيضاً، وحكايتُنا تشبهُ حكايةَ هذين الحالمين. لكنَّ الكنز الذي تعدُنا به الرُّؤيا يكمن في الزَّمان، لا في المكان. وعدَ الحلمُ كلّاً منّا بالآخر، لكنَّنا لم نلتقِ على امتداد أربعينَ سنةً،

ولم يعرفْ أيٌّ منّا بحلمِ الآخرِ إلّا بعد أربعينَ سنةً. ويمكنُكَ أن تتخيَّلَ أنَّني الآن في السِّتِّين من العمر، ولذلك فإنَّ لقاءَنا في الحقيقة والمكان أصبحَ شيئاً متعذِّراً. ويحسن بنا أن نبقى باحثينِ عن كنزِ أوهامِنا في الزَّمان لا في المكان. ولذلك أقترحُ عليك الآتي. لقد أعطتْنا الرُّؤيا حتّى الآن أربعينَ سنةً، لكنَّنا يجب أن نطيلَها إلى أقصى حدٍّ، إذ يمكنُنا أن نعيشَ فيها أربعينَ سنةً أُخرى. وأنا أقترحُ أن يكونَ لقاؤنا بعد أربعينَ سنةً. حينئذٍ سوف يكون كلٌّ منّا قد تجاوزَ عمرَ المئة، وعلى كلٍّ منّا حينَها أن يحملَ صورتَهُ حين كانَ في العشرين، ويهرعَ للقاءِ الآخر بعد ثمانينَ سنةً من الحلمِ بِهِ.



أعذبُ السَّردِ ما كانَ أبعدَ من "واقِ واقَ"، وأقربَ من نبضِ حبلِ الوريدِ. وللحقِّ لا بدَّ لي أن أُوضِّحَ أنَّ البعيدَ هنا قد يكونُ محالاً، ولا يتصوَّرُ عقلٌ حصولَ نظائرِهِ في زمانٍ يُماثلُ أزمانَنا نحنُ، لكنَّه مع ذلكَ شيءٌ يُعاشُ، ونشعرُ فيه يحيطُ بنا، والغرابةُ أن لا نراه. لذلكَ كانَ لزاماً لتسجيلِهِ من ضرورةِ إحداثِ بعضِ الثُّقوبِ بسردِ الحكاياتِ، أو جعلِها تتمظهرُ بالشِّعرِ أو بالخيالِ، لكي يتصوَّرَ قارئُها أنَّها في حدودِ الوقوعِ، وقابلةٌ للوجودِ.



ISBN 978-9-9226714-1-3
9 789922 671413 >
daralrafidain
dar.alrafidain
daralrafidain دار الرافدين
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
Dar ALRafidain دار الرافدين